

الأسباب في القرآن الكريم

(دراسة موضوعية)

إعداد الدكتورة

تغريد عبد اللّه الجوهري

مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات القاهرة - جامعة الأزهر

الأسباب في القرآن الكريم
(دراسة موضوعية)

تغريد عبد الله الجوهري
قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الاسلامية والعربية بنات القاهرة، جامعة الأزهر، القاهرة، جمهورية مصر العربية .
البريد الإلكتروني: Taghreedalgohary.2057@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى تحليل الأسباب في القرآن الكريم لفهم السياق الذي نزل فيه القرآن وتقديم التفسيرات الصحيحة. وفهم الأسباب والتحقق من كيفية تطبيقها في الحياة اليومية، وكذلك يهدف إلى التعرف على الأسباب المادية والمعنوية في القرآن الكريم، واستكشاف رسائل القرآن الكريم التي تتعلق بالحكمة والمغزى والتوجيهات الأخلاقية، وفهم الأسباب وراء تلك الرسائل. استخدم البحث المنهج الاستقرائي والتحليلي، وذلك باستقراء ما جاء من أسباب في بعض آيات القرآن الكريم، وكتب التفسير المختلفة وجمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأسباب بشكل مباشر أو غير مباشر كما اعتمد البحث على المنهج التحليلي لتفسير هذه الآيات. توصل البحث إلى أن حكمة الله اقتضت خلق الأسباب والمسببات وربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، وأن العلاقة السببية لا تقتصر على السنن والظواهر الكونية فحسب، بل تشمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فهي أيضًا ترتبط بعلاقات سببية، وكذلك الأحكام الشرعية؛ ورصد البحث ايضا أن تأثير السبب في المسبب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبب وحدوثه أو عدم حدوثه، والتوكل على الله ليس بمانع من اتخاذ الأسباب؛ إذ لا توكل إلا بعد الأخذ بها، فالتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب فيه معنى الشعور بالنقص والعجز الإنساني، وفيه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته، والمؤمن إذا توكل على الله بعد الأخذ بالأسباب فإنه يتحرر من العبودية للأسباب، وتعلق قلبه بها، والأخذ بالأسباب فيه امتثال لأمر الله له وطاعته، ومن رفض الأخذ بها فقد ضاد الله في أمره.

الكلمات المفتاحية: السبب، المسبب عنه، السبب المادي، السبب المعنوي، أسباب النزول، الشرط، العلة.

Causes in the Holy Quran (Objective Study)

Taghreed Abd Allah Al-Johari
Department of Exegesis (Tafsir) and Quran Sciences, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Email: Taghreedalgohary.2057@azhar.edu.eg

Abstract.

The research aims to analyze the causes in the Quran to understand the context in which the Quran was revealed, to provide correct interpretations and to understand the causes and verify how they are applied in daily life. The research aims to identify the material and moral reasons in the Holy Quran, explore the messages of the Holy Quran that relate to wisdom, meaning and moral guidance. The research uses the inductive and analytical method, by extrapolating the reasons mentioned in some verses of the Holy Quran, writing various interpretations and collecting Quranic verses that talk about the reasons directly or indirectly. The research also relies on the analytical method to interpret these verses. It concludes that the wisdom of Allah requires the creation of causes and results and linking causes with their results and consequences with their precursors. The causal relationship is not limited to cosmic laws and phenomena only, but also includes human and social relations. The research also reveals that the effect of the cause in the result is not inevitable, as it is the divine ability that is entrusted with the effect of the cause in the result and its occurrence or non-occurrence. Trusting and reliance on Allah does not mean abandoning working with the required reasons, you need to do what is necessary, this reflects the feeling of human incompleteness and helplessness, and it has a sense of the absolute perfection of Allah Almighty and His ability. If the believer relies on Allah after practicing his work and duties, then he is free from slavery for the reasons. Practicing work and duties as reasons includes compliance with God's command, and whoever refuses to practice the reasons has opposed Allah's command.

Keywords: Cause, Result, Material Cause, Non-material Cause, Reasons for Revelation, Condition.

مقدمة:

خلق الله هذا الكون وجعل له سننًا وقوانين تحكمه وتُسيّر عمل الخلق فيه، وهي ما يعبر عنها بالأسباب؛ ليقوم البشر بمهمة الاستخلاف في الأرض؛ ولذلك ربط الأسباب مسبباتها والمقدمات بنتائجها. وهذه الأسباب وتلك المسببات تكون قانونًا إلهيًّا عامًا هو ما سماه القرآن الكريم: سُنة الله التي لا تقبل التبديل ولا التغيير، قال تعالى:**"سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا"**[(١)].

وهذا القانون إنما هو خاضع لله سبحانه وتعالى–الذي وضعه. وتأثير السبب في المسبب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبب وحدوثه أو عدم حدوثه.

والقانون الحتمي الوحيد هو: قوله تعالى: "لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أمرا[(٢)]. فهو الذي يتحدث عن طلاقة القدرة الإلهية من وراء هذه السنن والقوانين الكونية التي يدبر بها الله – سبحانه وتعالى – هذا الكون بقدره النافذ الطليق. فالإرادة الطليقة هي التي تنشئ الآثار والنتائج كما تنشئ الأسباب والمقدمات سواءً[(٣)].

وبناءً على ما سبق؛ فإن هذا البحث يتناول الأسباب في القرآن الكريم وأهميتها.

<u>**أهمية الموضوع وأسباب اختياري له:**</u>

إن البحث في الأسباب في القرآن الكريم له أهمية كبيرة نظرًا لعدة أسباب منها: –

- **فهم السياق:** يساعد البحث على فهم السياق الذي نزل فيه القرآن وتقديم التفسيرات الصحيحة. فالعديد من الآيات والأحكام تأتي مع سياق تاريخي أو أحداث معينة وبحث الأسباب يساعد في فهم هذه السياقات بشكل أفضل.

---

(١) سورة الفتح، الآية رقم (٢٣).

(٢) سورة الطلاق، الآية رقم (١).

(٣) القدرة الإلهية والأسباب في القرآن الكريم " سورة مريم نموذجاً "، رحاب رفعت فوزي – مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية، ع ٦٤، ٢٠١٥، صـ ٢٨٧.

- **الفهم الشامل والعميق:** يمكن للبحث في الأسباب في القرآن أن يفتح آفاقًا جديدة للفهم الشامل والعميق للمعاني القرآنية. يتيح البحث الاستكشاف والتعمق في علاقة الآيات والمفاهيم والأحكام؛ وبالتالي يوفر فهمًا متكاملًا للقرآن الكريم.
- **كذلك معرفة سبب نزول الآية:** تساعد على سرعة الحفظ مع الدقة في الوقت نفسه. كما يساعد على فهم الآية.
- **التطبيق العملي:** من خلال فهم أسباب تنزيل الآيات والأحكام، يمكن تطبيق تعاليم القرآن في حياتنا بشكل أفضل. فتحقيق الجانب العملي للقرآن يعني فهم الأسباب والتحقق من كيفية تطبيقها في الحياة اليومية.
- يعد البحث في الأسباب من الأبحاث المتجددة فقد يظهر لباحث معنى لسبب في آية لم يتبادر إلى ذهن غيره....

<u>**أهداف البحث:**</u>

تتمثل أهداف هذا البحث فيما يلي: -

- **تحليل الأسباب في القرآن الكريم لفهم السياق الذي نزل فيه القرآن وتقديم التفسيرات الصحيحة.**
- **فهم الأسباب والتحقق من كيفية تطبيقها في الحياة اليومية.**
- **البحث عن الأسباب المادية والمعنوية في القرآن الكريم: استكشاف رسائل القرآن الكريم التي تتعلق بالحكمة والمغزى والتوجيهات الأخلاقية، وفهم الأسباب وراء تلك الرسائل.**

<u>**المشكلة البحثية والتساؤلات:**</u>

تثير مسألة الأسباب في القرآن الكريم العديد من الإشكاليات منها ما يتعلق بأسباب النزول ومنها وما يتعلق بفهم السياق الذي نزل فيه القرآن وتقديم التفسيرات الصحيحة، ومنها ما يتعلق بالتعمق في علاقة الآيات والمفاهيم والأحكام في القرآن الكريم.

ويتمثل التساؤل الرئيسي لهذا البحث فيما يلي: -

ما هي الأسباب في القرآن الكريم؟

وللإجابة عن هذا التساؤل الرئيسي لا بد من مناقشة عدد من المسائل الفرعية وتتمثل فيما يلي:

- أهمية دراسة الأسباب المذكورة في القرآن الكريم.
- تعامل القرآن الكريم مع مفهوم السببية في تفسير الأحداث والمعاني.
- بعض الدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من تحليل الأسباب في القصص القرآني.
- كيفية انتفاع المسلمين بتوجيهات القرآن الكريم المتعلقة بالأسباب.
- دراسة أقسام الأسباب وتنوعاتها المختلفة.
- أسباب النزول وكونها جزءًا من الأسباب المذكورة في القرآن.

<u>الدراسات السابقة:</u>

- **دراسة: محمد محزون (٢٠١٩): سلطت الدراسة الضوء على نظام الأسباب في القرآن الكريم.**
- **دراسة: عبد المحسن بن زيد(٢٠١٧): تطرق البحث إلى أسباب وموانع تدبر القرآن الكريم.**
- **دراسة: سحر زكريا (٢٠١٧): هدف البحث إلى التعرف على أسباب وضوابط الاختلاف في فهم القرآن الكريم " دراسة أصولية ".**

<u>منهجي في البحث:</u>

١- استخدام المنهج الاستقرائي التحليلي في عرض النماذج.
٢- إيثار الإيجاز والاختصار في تناول البحث؛ وذلك لأن المقصد الأساس لهذا البحث هو الدراسة التطبيقية لمعاني الأسباب في القرآن الكريم.
٣- عزو الآيات إلى سورها، وذكر أرقامها في السورة.
٤- تخريج الأحاديث النبوية وعزوها إلى مصادرها بذكر اسم الكتاب، والباب، ورقم الحديث، والجزء، والصفحة، مع الحكم عليها إذا لم تكن في الصحيحين.
٥- التعريف بالأعلام غير المشهورة.
٦- ذكر اسم الكتاب كاملًا، مع اسم مؤلفه، والجزء، والصفحة، والناشر، والطبعة

عند أول ذكر للكتاب، ثم أكتفي بعد ذلك بذكر اسم الكتاب مختصرًا، والجزء والصفحة.

٧- تحري الدقة والأمانة في النقل، وذلك بعزو الأقوال إلى أصحابها، أو الإحالة إلى المصدر المقتبس منه.

والله أسأل أن يوفقني لإتمام هذا البحث على النحو الذي يرضيه . عزوجل . وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به، وأن يتجاوز عما يكون فيه من تقصير، والله من وراء القصد، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

خطة البحث:

يشتمل البحث على: مقدمة، وسبعة مباحث، وخاتمة.

المبحث الأول: تعريف الأسباب في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: العلاقة بين السبب والشرط والعلة.

المبحث الثالث: أسباب النزول في القرآن الكريم وأهميتها.

المبحث الرابع: العلاقة بين السبب والمسبب **ويشتمل على ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول: التلازم بين السبب والمسبب عنه.

المطلب الثاني: الله خالق السبب والمسبب.

المطلب الثالث: سنية الأخذ بالأسباب وتقاربها من فطرة الإنسان.

المبحث الخامس: أنواع الأسباب في القرآن الكريم.

المبحث السادس: نماذج من أساليب القرآن في التعبير عن الأسباب.

المبحث السابع: العلاقة بين الأسباب وقضاء الله تعالى.

الخاتمة.

المبحث الأول

تعريف الأسباب في القرآن الكريم

السبب في اللغة: كل ما تسبب به إلى الوصول إلى المطلوب: من حبل، أو وسيلة، أو رحم، أو قرابة، أو طريق، أو محجة، وغير ذلك. تقول: فلان سببي إليك، أي: وصلتي. وما بيني وبينك سبب؛ أي: صلة ورحم. وقطع الله به السبب، أي: الحياة. ويقال للطريق: سبب؛ للتسبب بركوبه إلى ما لا يُدرك إلا بقطعه. ويقال للمصاهرة: سبب؛ لأنها سبب للحرمة. ويقال للوسيلة: سبب؛ للوصول بها إلى الحاجة، وكذلك كل ما كان به إدراك الطِّلْبة، فهو سبب لإدراكها. وجمع (سبب) أسباب: وأسباب السماء: مراقيها، ونواحيها، أو أبوابها[١].

السبب في الاصطلاح: سمي كل ما يتوصل به إلى شيء سببًا قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[٢]، والمعنى: أن الله قد آتاه من كل شيء معرفة وذريعة يتوصل بهما، فأتبع واحدًا من تلك الأسباب وقوله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾[٣]، إشارة إلى قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[٤]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥]؛ أَي لعلِّي أَبلغ الأسباب والذرائع

---

(١) لسان العرب: تأليف محمد بن مكرم بن علي، أبوالفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي ت ـ ٧١١هـ، الناشر: دار صادر – بيروت، ط ٣ /١٤١٤. جـ ١ص ٤٥٨، بتصرف

(٢) سورة الكهف، الآيتان رقم ٨٤،٨٥.

(٣) سورة ص، جزء من الآية رقم (١٠)

(٤) سورة الطور، الآية رقم (٣٨)

(٥) سورة غافر، الآية رقم (٣٦).

الحادثة في السماءِ فأَتَوَصُل بها إِلى معرفة ما يدّعيه موسى[١]: وجاء فى التعريفات مايفيد أن السبب: اسم لما يتوصل به إلى المقصود، وهو عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه[٢].

وردت كلمة (سبب) في القرآن الكريم في تسعة مواضع، جاءت في جميعها بصيغة الاسم.

حيث وردت مفردة في خمسة مواضع ومجموعة في أربعة أخرى[٣]. وفي كل أحوالها لا تخرج عن خمسة معان [العلم، والطريق، والحبل، وأسباب السماء وطرقها، والمودة].

ومن النماذج الموضحة لتلك المعاني في القرآن الكريم:

١- قوله تعالى:﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[٤]؛ أي: علمًا في كل أمر، وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء، وقوله "كُلِّ شَيْءٍ عموم، معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه، وثم لا محالة أشياء لم يؤتَ منها سببًا يعلمها به[٥] فكان السبب في الآية الكريمة بمعنى العلم والمعرفة.

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تأليف أبوالقاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، جـ٤ ص١٧٢، ت: ٥٣٨هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) التعريفات تأليف علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ) جـ١ ص١١٧ بتصرف.

(٣) الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط ١ ١٤٠٣هـ –١٩٨٣م١.

(٤) سورة الكهف، الآية رقم (٨٤).

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، جـ ٣ ص ٥٣٩، تأليف أبومحمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت ٥٤٢هـ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١ – ١٤٢٢ هـ.

٢- قوله تعالى:﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[١] أي طريقًا؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد[٢]. وهنا جاء السبب بمعنى الطريق.

٣- قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾[٣]، فمعنى السبب في الآية الحبل[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[٥]؛ أي الطرق التي يتوصل بها إلى العرش[٦].

٥- **قال تعالى:** ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[٧].

حيث الأسباب في الآية الكريمة بمعنى المودة والصلة التي بينهم من الاتباع والاتفاق على الدين[٨].

ويتضح مما سبق..

---

(١) سورة الكهف، الآية رقم (٨٥).

(٢) المحرر الوجيز، جـ ٣٩، صـ ٥٣٩.

(٣) سورة الحج، الآية رقم (١٥).

(٤) مفاتيح الغيب، جـ٢٣ صـ ١٥، تأليف أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ت: ٦٠٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ سنة١٤٢١هـ.

(٥) سورة ص، الآية رقم (١٠).

(٦) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ ٥ ص ٣٨، تأليف ناصرالدين أبوسعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط دار الفكر بيروت.

(٧) سورة البقرة، الآية رقم (١٦٦).

(٨) الكشاف للزمخشري، جـ ١، صـ ٢٣٨.

أولًا: أن السبب في المعنى اللغوي يتفق مع المعنى الاصطلاحي عند المفسرين. كما أن معانيه الواردة في القرآن الكريم تتناسب مع كلا المعنيين.. فإن العلم يوصل للمعرفة السليمة والواضحة بالمجهول فهو وسيلة للخروج من صفة الجهل، وكذلك الطريق الذي يعتبر وسيلة للوصول إلى الهدف المراد، كما أن الحبل وسيلة لكثير من الأغراض، أسباب السماء أبواب وطرق صعود للدعاء والعمل فيصل الإنسان بهما للجنة أو النار، وكذلك الصلة والمودة فهما طرق للتعامل بين الناس والحصول على تعاون وتكامل مجتمعي حتى ولو من غير الأقارب.

ثانيًا: أن معاني لفظ السبب تتنوع بين المادي والمعنوي مع الاتفاق في كونها وسيلة موصلة لشيء محدد..

ومن هنا يأتي الحديث عن أنواع الأسباب فيما يأتي من مباحث.

المبحث الثاني

العلاقة بين العلة والشرط والسبب

أما العلة فتعني: المرض، الحدث يشغل صاحبه عن حاجته[1]؛ أي أنها أمر عارض يغير الحال كما يغير المرض المريض ويعبر الفقهاء عنها بأنها: وصف ظاهر منضبط دل الدليل على كونه مناطًا للحكم[2].

والفرق بين العلة والسبب: أن من العلة ما يتأخر عن المعلول كالربح وهو علة التجارة يتأخر ويوجد بعدها، والسبب لا يتأخر عن مسببه على وجه من الوجوه، ألا ترى أن الرمي الذي هو سبب لذهاب السهم لا يجوز أن يكون بعد ذهاب السهم، وعند بعض المتكلمين أن العلة ما توجب حالًا لغيره[3].

وجاء في المعجم: السبب يرادف العلة إلا أن النظار يفرقون بينهما من وجهين: أحدهما: أن السبب يحصل الشيء عنده لا به، والعلة ما يحصل به.... والثاني: أن المعلول ينشأ عن علته بلا واسطة، على حين أن السبب يفضي إلى الشيء بواسطة[4].

وأما الشرط فمعناه: التأثير أو العلامة وهو إلزام الشيء أو التزامه.

ويعرف أيضًا بأنه وصف يلزم من عدمه عدم ما علق عليه، ولا يلزم من وجوده وجوده ولا عدمه[5].

---

(١) لسان العرب، جـ١١ صـ ٤٧١.

(٢) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله ـ عياض السلمي، صـ ٥٥.

(٣) معجم الفروق اللغوية، جـ١ صـ٣٧٠، تأليف أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ت ٣٩٥هـ . مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، ط ١٤١٢١هـ.

(٤) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية تأليف د/جميل صليبا عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، جـ١ صـ ٢٤٨.

(٥) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله ـ عياض السلمي، ص ٥٧.

فكل حكم معلوم متعلق بأمر يقع بوقوعه، وذلك الأمر كالعلامة له[١].

والفرق بين السبب والشرط أن السبب ما يلزم من عدمه العدم، ومن وجوده الوجود، بينما الشرط ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم لذاته وجود ولا عدم[٢].

والسبب يحتاج إليه في حدوث المسبب ولا يحتاج إليه في بقائه ألا ترى أنه قد يوجب المسبب والسبب معدوم، وذلك نحو ذهاب السهم يوجد مع عدم الرمي، والشرط يحتاج إليه في حال وجود المشروط وبقائه جميعًا نحو الحياة لما كانت شرطًا في وجود القدرة لم يجز أن تبقى القدرة مع عدم الحياة[٣].

فمثلًا الطهارة شرط لصحة الصلاة، فيلزم من عدم الطهارة عدم صحة الصلاة، ولا يلزم من وجود الطهارة صحة الصلاة ولا عدمها؛ لأن الطهارة قد تحصل ولا تحصل صلاة، أو تحصل صلاة غير مستوفية لبقية الشروط والأركان[٤].

والقتل سبب لوجوب القصاص، فلا يجب القصاص إلا بوجود القتل فالمسبب إذًا يستلزم وجود السبب إلا لمانع، بخلاف الشرط فإنه لا يستلزم من وجوده وجود المشروط .

والإسكار علة لتحريم الخمر عند العلم بها ويترتب على ذلك صفة توجب الحكم.

والفقهاء قد يجعلون العلة مرادفة للسبب، وقد يجعلونها مباينة له، فيطلقون السبب على ما لا تعرف حكمته مما هو علامة على ثبوت حكم أو نفيه، مثل غروب الشمس، الذي هو علامة على وجوب صلاة المغرب[٥].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن، صـ ٤٥٠، مادة "شرط"، تأليف العلامة الراغب الأصفهاني، ت ٤٢٥ ط دار القلم دمشق.

(٢) المعجم الفلسفي، جـ١، صـ ٢٤٧، ٢٤٨.

(٣) معجم الفروق اللغوية، جـ١ صـ ٢٧١.

(٤) أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله، صـ ٥٥ – ٥٧، للدكتور عياض السلمي.

(٥) المصدر نفسه السابق، صـ ٥٧، بتصرف.

المبحث الثالث

أسباب النزول في القرآن الكريم وأهميتها

معنى سبب النزول

سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه مبينة لحكمه أيام وقوعه، والمعنى: أن حادثة وقعت في زمن النبي أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال.

* سواء أكانت تلك الحادثة خصومة دبت كالخلاف الذي شجر بين جماعة من الأوس وجماعة من الخزرج بدسيسة من أعداء الله اليهود حتى تنادوا السلاح السلاح ونزل بسببه تلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من أول قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾[1]، إلى آيات أخرى بعدها هي من أروع ما ينفر من الانقسام والشقاق ويرغب في المحبة والوحدة والاتفاق.

* أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشًا ارتكب كذلك السكران الذي أم الناس في صلاته وهو في نشوته ثم قرأ السورة بعد الفاتحة فقال: قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون وحذف لفظ لا من لا أعبد فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[2].

* أم كانت تلك الحادثة تمنيًا من التمنيات ورغبة من الرغبات كموافقات عمر رضي الله عنه.

- ومن أمثلتها ما أخرجه البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه قال قال عمر وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت:

---

(١) سورة آل عمران، الآية رقم (١٠٠).

(٢) سورة النساء، جزء من الآية رقم (٤٣).

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾، وقلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت لهن: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فنزلت كذلك.

- والمراد بقولنا أيام وقوعه الظروف التي ينزل القرآن فيها متحدثًا عن ذلك السبب سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم، كما حدث ذلك حين سألت قريش رسول الله عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين.
- فقال غدًا أخبركم ولم يستثنِ أي لم يقل إلا أن يشاء الله فأبطأ عليه الوحي أيامًا حتى شق عليه.

وتختلف صيغ سبب النزول: -

- **فتارة يصرح فيها بلفظ السبب، فيقال سبب نزول الآية كذا، وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها.**
- **وتارة لا يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببية أيضًا.**
- **وتارة تكون صيغة سبب النزول محتملة كأن يقال: نزلت هذه الآية فى كذا فهذا يحتمل أن يكون سبب نزول الآية أو بيانا لمدلول الآية.**
- **ومرة يسأل الرسول فيوحى إليه ويجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيرًا بلفظ سبب النزول ولا تعبيرًا بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعًا من المقام كرواية ابن مسعود الآتية عندما سُئل النبي عن الروح وحكم هذه أيضًا حكم ما هو نص في السببية.**

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصًا في السببية لنزول تلك الآية أو

الآيات هنالك نأخذ في السببية بما هو نص ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل(١).

وتظهر أهمية دراسة الأسباب في القرآن الكريم في معرفة أسباب النزول التي توضح معاني الآيات، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، كما أن هناك أبحاثًا في أصول الفقه استندت إلى معرفة سبب النزول، أو أفادت منها، مثل: (خصوص السبب)، و(عموم اللفظ)... وتظهر فائدة معرفة سبب النزول جلية في إفرادها بالتصنيف، ويوضح ذلك الإمام الزركشي في "البرهان"، حيث يقول: [وقد اعتنى المفسرون في كتبهم بأسباب النزول وأفردوا فيه تصانيف..منهم علي بن المديني شيخ البخاري ـ ومن أشهرها تصنيف الواحدي ـ في ذلك وأخطأ من زعم أنه لا طائل تحته لجريانه مجرى التاريخ، وليس كذلك بل له فوائد منها بيان وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ومنها تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى، قال الشيخ أبوالفتح القشيري بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا، ومنها أنه قد يكون اللفظ عامًا ويقوم الدليل على التخصيص فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد والإجماع؛ لأن دخول السبب قطعي، ومن الفوائد أيضًا دفع توهم الحصر قال الشافعي ما معناه في معنى قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ..﴾ (٢) الآية. إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله وكانوا على المضادة والمحادة جاءت الآية مناقضة لغرضهم فكأنه قال لا حلال إلا ما حرمتموه ولا حرام إلا ما أحللتموه، نازلًا منزلة من يقول لا تأكل اليوم حلاوة فتقول:

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن، جـ١ من ص ٧٧ إلى ص ٨٣، بتصرف، تأليف محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر – بيروت ط ١، ١٩٩٦.

(٢) سورة الأنعام، جزء من الآية رقم (١٤٥).

لا آكل اليوم إلا الحلاوة، والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة فكأنه قال لا حرام إلا ما حللتموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل، قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن] (١).

ومما يوضح أهمية معرفة أسباب النزول قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢). إذ قد يفهم من ظاهر الآية أن يتوجه المصلي في صلاته إلى أي جهة يشاء، وأنه لا يجب عليه أن يولّي وجهه شطر المسجد الحرام، ويستوي في ذلك المسافر والمقيم. ولكن عندما نعرف سبب النزول لهذه الآية يظهر لنا أنها تقتصر على أحوال معينة، وليست حكمًا عامًا يعفي من التوجّه إلى المسجد الحرام؛ فقد روي عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي السَّفَرِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، حَيْثُ تَوَجَّهَتْ بِهِ يُومِئُ إِيمَاءً صَلاَةَ اللَّيْلِ، إِلَّا الفَرَائِضَ وَيُوتِرُ عَلَى رَاحِلَتِهِ»(٣).

حيث اختلف في سبب نزولها على روايات ثلاث(٤):

الرواية الأولى: (عن جابر بن عبدالله قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا

---

(١) البرهان في علوم القرآن، جـ١ ص ٢٣،٢٢، تأليف أبوعبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي ت: ٧٩٤هـ، ط ١١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

(٢) سورة البقرة، الآية: (١١٥).

(٣) رواه البخاري في صحيحه ـ كتاب الوتر ـ (باب الوتر في السفر)، حديث رقم (٩٥٤)، جـ٢ صـ ٢٥.

(٤) أسباب النزول، ص ٢٤،٢٣، بتصرف، تأليف أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ت: ٤٦٨هـ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، سنة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨م.

القبلة هي ها هنا قبل الشمال، فصلوا وخطوا خطوطًا، وقال بعضنا: القبلة ها هنا قبل الجنوب وخطوا خطوطًا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فسكت فأنزل الله تعالى – ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾.

الرواية الثانية: عن ربيعة، عن أبيه قال: (كنا نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر في ليلة مظلمة، فلم يدر كيف القبلة، فصلى كل رجل منا على حاله، فلما أصبحنا ذكرنا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فنزلت – فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ – ومذهب ابن عمر أن الآية نازلة في التطوع بالنافلة).

الرواية الثالثة: عن سعيد بن جبير، عن ابن عمر قال: (أنزلت – فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ– أي صل حيث توجهت بك راحلتك في التطوع).

فيظهر أنه مع اختلاف الروايات، إلا أنها تتفق في أن المراد بالصلاة ليست على عمومها وإنما في أحوال معينة ما بين التطوع أو السفر ولم نعلم ذلك إلا من خلال سبب النزول، ويؤكد ذلك ما ورد عن ابن عمر: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي سبحته حيثما توجهت به ناقته[1] حيث السبحة النافلة.

ومما يوضح أهمية معرفة سبب النزول أيضًا: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾[2].

حيث من المعروف أن السعي بين الصفا والمروة جزء من شعائر الحج واجب الأداء، وعبارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ في الآية الكريمة لا تفيد الوجوب، وقد

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب جواز صلاة النافلة على الدابة فى السفر ح ٧٠٠ جـ١ صـ ٤٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: (١٥٨).

أشكل هذا على عروة بن الزبير فسأل خالته السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فأفهمته أن نفي الجناح في الآية ليس نفيًا للفرضية، إنما هو نفي لما وقر في أذهان المسلمين- وهم في مطلع عصر الإيمان- من أن السعي بين الصفا والمروة كان من عمل الجاهلية، فلقد كان على الصفا صنم يقال له: إساف، وكان على المروة صنم يقال له: نائلة، وكان المشركون في الجاهلية يسعون بين الصفا والمروة ويتمسحون بالصنمين. ولقد حطّم الصنمان بعد فتح مكة، لكن المسلمين تحرّجوا في الطواف بينهما فنزلت الآية.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ[1]، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَرَى عَلَى أَحَدٍ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ شَيْئًا، وَمَا أُبَالِي أَنْ لَا أَطُوفَ بَيْنَهُمَا، قَالَتْ: "بِئْسَ مَا قُلْتَ، يَا ابْنَ أُخْتِي، طَافَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَافَ الْمُسْلِمُونَ، فَكَانَتْ سُنَّةً وَإِنَّمَا كَانَ مَنْ أَهَلَّ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي بِالْمُشَلَّلِ، لَا يَطُوفُونَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَلَمَّا كَانَ الْإسلام سَأَلْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ وَلَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ، لَكَانَتْ: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطَّوَّفَ بِهِمَا" قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عبدالرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ، وَقَالَ: "إِنَّ هَذَا الْعِلْمُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ

---

(١) هوعروة بن الزبير بن العوام القرشي من أهل المدينة كنيته أبو عبد الله أخو عبد الله بن الزبير أمهما أسماء بنت أبي بكر الصديق يروي عن عائشة وأبيه وعبد الله بن عمرو روى عنه الزهري وكان من أفاضل أهل المدينة وعلمائهم واختلف ففى موته فمنهم من قال إنه مات سنة تسع وتسعين ومنهم من قال سنة إحدى ومائة وقيل سنة خمس وتسعين وقيل سنة مائة وقيل سنة أربع وتسعين [الثقات جـ ٥ ص ١٩٤، ١٩٥ بتصرف اتأليف محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (ات:٣٥٤هـ) الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند].

يَقُولُونَ: إِنَّمَا كَانَ مَنْ لَا يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنَ الْعَرَبِ، يَقُولُونَ: إِنَّ طَوَافَنَا بَيْنَ هَذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، وقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْأَنْصَار: إِنَّمَا أُمِرْنَا بِالطَّوَافِ بِالْبَيْتِ وَلَمْ نُؤْمَرْ بِهِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ. قَالَ أَبُوبَكْرِ بْنُ عبدالرَّحْمَنِ: فَأُرَاهَا قَدْ نَزَلَتْ فِي هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ[1].

فإذا قرأت ظاهر الآية دون معرفة سبب النزول ظهر إشكال في الحكم الشرعي لفرضية السعي بين الصفا والمروة، ويتم دفع هذا الإشكال بالرجوع لسبب النزول وفهم عدم التعارض مطلقًا؛ فبه تم دفع الإشكال عما يوهم بظاهره الإشكال.

---

(١) رواه مسلم والبخاري في صحيحيهما، واللفظ لمسلم كتاب [الحج] باب . بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به، ح رقم (١٢٧٧)، جـ٢ ص ٩٢٣.

المبحث الرابع

العلاقة بين الأسباب والمسببات

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التلازم بين السبب والمسبب عنه

المطلب الثاني: الله تعالى خالق السبب والمسبب

المطلب الثالث: سنية الأخذ بالأسباب وتقاربها من فطرة الإنسان

تمهيد:

خلق الله تعالى الكون الكون بما فيه وبمن فيه، وجعل له سننًا وقوانينَ تحكمه وتنظمه، وتيسر عمل الإنسان فيه، وهو ما يعبر عنه بالأسباب ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض؛ ولذا ربط الأسباب بمسبباتها، والمقدمات بنتائجها، وذلك يتم وفق نظام محدد نعرف قيمته من خلال الإيمان بمنهجية استخدام الأسباب وتحقيقها النتائج، وأن الله تعالى هو المؤثر الأول والموجد لكل من السبب والمسبب وأنه جعل للبشر سنة الأخذ بالأسباب للوصول إلى النتيجة المقصودة [المباشرة]،

[وغير المباشرة]، وهي الوصول إليه جل وعلا وزيادة الإيمان بقدرته وعلمه وحوله..

قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾[1]؛ أي: إنا خلقنا كل شيء بمقدار قدرناه وقضيناه[2].

---

(١) سورة القمر، الآية رقم (٤٩).

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، جـ٢٢ ص ٦٠٤، تأليف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبوجعفر الطبري ت: ٣١٠هـ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

المطلب الأول

التلازم بين السبب والمسبب عنه

الفرق بين الأسباب ومسبباتها يكمن في أن: -

الأسباب: هي الوسائل التي تتبع للوصول إلى المطلوب... أما المسببات: فهي النتائج الحاصلة عندما يتم الأخذ بالأسباب.... فعلى سبيل المثال الأكل هو السبب بينما الشبع الحاصل عن حدوث هذا السبب هو المسبب؛ أي النتيجة التي تحصل عند الأكل.

والله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب، ويقصد بذلك بأنه جاعلها بحكمته أسبابًا مفضية إلى نتائجها.

من حكمة الله أنه جعل كل شيء يحدث بسبب، سواء كان هذا الحدث يتعلق بالجماد، أو بالنبات، أو بالحيوان، أو بالإنسان، أو بالأجرام السماوية، أو بالظواهر الكونية المختلفة. فقانون السببية، أي ربط المسببات بأسبابها والنتائج بمقدماتها قانون عام شامل لكل ما يحدث في الكون، فجعل النكاح سببًا للولد، والبذر سببًا للزرع، وجعل شرب الماء سببًا للري، وجعل الأكل سببًا للشِّبَع، وجعل الجد والاجتهاد سببًا للنجاح، وجعل الكسل والتواني سببًا للفشل، وجعل النار سببًا للإحراق، وجعل قطع الرأس سببًا للموت وهكذا.

وهذه الأسباب يستوي فيها المسلم والكافر والبر والفاجر، فمن شرب روي، ومن أكل شبع، ومن اجتهد حصَّل، ومن زرع حصد، وهكذا. فالله تعالى اقتضت حكمته ربط الأسباب بالمسببات.. إذن يحدث تأثير السبب في المسبب بقدرة الله وحده وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

(١) سورة يس، الآية رقم (٨٢).

أي إذا دعاه جل وعلا داعي حكمة إلى تكوين شيء ولا صارف أن يكونه من غير توقف فيحدث، أي: فهو كائن موجود لا محالة [(١)].... ففيه دليل على تأثير القدرة الإلهية في السبب بإرادته جل وعلا لإتمام المسبب، أو محوه.. وهذا واقع في كل أمور الكون سواء في الأمور العقيدية، أو التشريعية، أو الخلقية.. الظاهرة لنا رأي العين أو التي لم نعلمها ولم تتكشف بعد..

ومن الأمثلة الموضحة للعلاقة بين السبب والمسبب: .

١- **ما ورد من أن الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة:** قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [(٢)]. أي: كلوا وشربوا في الجنة بما قدمتم من أعمالكم الصالحة، في الأيام الماضية، يريد: أيام الدنيا[(٣)]. فيكون المؤمن في حالة من العيش يرضاها، بأن لقي الثواب، وآمن العقاب بسبب ما قدمه في الدنيا من عمل صالح.

٢- **التقوى سبب الخروج من كل ضيق:** قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[(٤)]. أي: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ومخلصًا من غموم الدنيا والآخرة[(٥)]. فالتقوى تلزم الخوف من الله في الفعل والترك فيفعل ما أمر به الله، ويجتنب ما نهاه عنه، فإذا فعل ذلك استحق حسن الجزاء من الخروج من كل ضيق وتيسير الرزق من حيث لا يحتسب.

---

(١) الكشاف، جـ٤ صـ ٣٣.

(٢) سورة الحاقة، الآية رقم (٢٤).

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤ ص ٣٤٧، تأليف أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ت: ٤٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٤ م.

(٤) سورة الطلاق، الآية رقم (٢).

(٥) تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، جـ٤ ص ٢٠٨، تأليف أبوالبركات عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، ت ٧١٠، دار الكلم الطيب، بيروت ط١، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٣ـ **السعى سبب للرزق:** قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[١]. ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار فهذا السبب، والمسبب السفر والتردد في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، مع العلم أن السعى لا يجدي شيئًا إلا أن ييسره الله ولهذا قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل[٢].

وعلى هذا نجد أن الأسباب والمسببات متلازمة سواء كان السبب والمسبب كلاهما ماديًا أو معنويًا، أو كان أحدهما ماديًا والآخر معنويًا، فإن العمل الصالح يمكن أن يكون ماديًا كدفع الصدقة مثلًا أو معنويًا كالدعاء بظهر الغيب، والمسبب عنه دخول الجنة وهو أمر مادي أخبرنا به الله جل وعلا، وإن كنا لم نره في الدنيا، ولكن صدق اليقين بما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم يجعلنا كأننا نرى جمال الجنة، بل ونتمناه ونفرح عندما يمر بخاطرنا.. وكذلك الأمر في كل سبب ومسبب عنه.

---

(١) سورة الملك، الآية رقم (١٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، جـ٤ صـ٥١٠، تأليف أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت: ٧٧٤هـ، دار الفكر الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

المطلب الثاني

الله تعالى خالق السبب والمسبب

خلق الله تعالى الإنسان ووكل إليه مهمة إعمار الأرض.. ولأنه الخبير بخلقته جل وعلا سخر للإنسان كل ما في الأرض، ومهدها له في حياته وموته يعيش على ظهرها في حياته متمتعًا بكل ما أودعه الله فيها كل حسب حاله، ويأويه باطنها في موته إلى أن يصل إلى مستقره الأخير الجنة أو النار..

ومن لطف الله بالإنسان بعد أن جعل له الأسباب يستخدمها للوصول لهدفه الذي أراد أن هداه إليها وعلمه أهميتها، فالهداية بعد الخلق هي أعظم النعم فلولا هداية الله لنا ما عرفناه ولا عبدناه، فالمعرفة به نتيجة لهدايته لنا وقد قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ۝٣﴾(١).

ويقول الإمام الرازي في تفسيره:

إنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح فكأن سائلًا قال الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال "الذي خَلَقَ فَسَوَّى والذي قَدَّرَ فَهَدَى"، ولا شك أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند الأنبياء عليهم السلام، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾(٢)، وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾(٣) قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٤). وأما محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ۝١خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ۝٢﴾(٥)

---

(١) سورة الأعلى، الآيات من رقم (١) إلى رقم (٣).

(٢) سورة الشعراء، الآية رقم (٧٨).

(٣) سورة طه، الآية رقم (٤٩).

(٤) سورة طه، الآيتان: رقم (٥٠).

(٥) سورة العلق، الآيتان رقم (١)، (٢).

هذه إشارة إلى الخلق ثم قال:﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[1] وهذه إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة فقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، وقد وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرًا لما فيها من العجائب والغرائب ولمشاهدة الإنسان لها واطلاعه عليها فلا جرم أن كانت أقوى في الدلالة ثم ههنا تفصيل جميل:

قوله: ﴿خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة.. ويحتمل أن يريد الحيوان.. ويحتمل أن يريد كل شيء خلقه.. فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهًا ـ أحدها ـ أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة على ما قال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ﴾[2].

وثانيها ـ أن كل حيوان فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط وغير مستعد لسائر الأعمال، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتي بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا ـ وثالثها ـ أنه هُيئ للتكليف والقيام بأداء العبادات.... وأما من حمله على جميع الحيوانات قال المراد إنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس وأراد من التسوية أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفًا بوصف الإحكام والإتقان مبرأ عن الفسخ والاضطراب.

وقوله: ﴿قَدَّرَ﴾ يتناول المخلوقات في ذواتها وصفاتها، كل واحد على حسبه فقدر السموات والكواكب والعناصر والمعادن والنبات والحيوان والإنسان بمقدار مخصوص من الجثة والعظم، وقدر لكل واحد منها من البقاء مدة معلومة ومن الصفات والألوان والطعوم والروائح والأيون والأوضاع والحسن والقبح والسعادة

(١) سورة العلق، الآية رقم (٣).

(٢) سورة التين، الآية رقم (٤).

والشقاوة والهداية والضلالة مقدارًا معلومًا على ما قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[١].

أما قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لقوة خاصة، وكل قوة فإنها لا تصلح إلا لفعل معين فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف في الأجزاء الجسمانية، وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى. وقوله فَهَدَى عبارة عن خلق تلك القوى في تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدرًا لفعل معين ويحصل من مجموعها تمام المصلحة[٢].

إن الله عز وجل جعل كل شيء بقدر وألهمنا ما يحيينا ويصلحنا فمن الناس من يقبل الهداية ويصبح على الطريق الذي ارتضاه الله له، ومنهم من يضل فينسى العهد ويتبع الهوى فيصبح كافرًا.. فهل يريد أي إنسان ألا يصل إلى الطريق القويم فيكون في ذمة الله؟ الإجابة قطعًا.. لا.. حيث إن الإنسان يريد النجاة فإذا كان الأمر بغير قدر من الله ما كان هناك اختلاف في العقائد ولا تشريعات.. وهذا يثبت تأثير إرادة الله جل وعلا بين السبب والمسبب، ويؤكد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم في بداية الدعوة صدع بالحق لقريش كافة، ولكنهم انقسموا حينها إلى مؤمن وكافر ولم يستطع النبي صلى الله عليه وسلم تغيير الكافر بل إن الكافر نفسه أبى ذلك وفقًا لقدر الله فيه.. فقد قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٤].. فقد علم ما في نفسه ولذا كتب له الضلالة فسار إليها العبد راغبًا عن الهداية الإلهية..

(١) سورة الحجر، الآية رقم (٢١).
(٢) مفاتيح الغيب، جـ ٣١ صـ ١٢٦، ١٢٧ بتصرف.
(٣) سورة القصص، الآية رقم (٥٦).
(٤) سورة القصص، الآية رقم (٦٨).

والله تعالى لا يترك العبد هملًا وإنما يرسل له أسباب الهداية والتوفيق لما أراده وهو يكتسب العمل بتلك الأسباب.. فمن شاء اهتدى ومن شاء أبى ويدل لذلك فعل الوليد بن المغيرة عندما سمع الآيات البينات.

فكأنه كان قد رق للقرآن وظهر منه ذلك حتى أن أبا جهل عندما أيقن ذلك قايضه بمال ليرجع عن رأيه فقال عن القرآن: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة" وبعد مراجعته له أخذ يفكر في طمس الحقيقة التي علمها بنفسه، وتحول مرة أخرى خشية ألا يرضى قومه عنه فقال: "إن هذا إلا سحر يؤثر" فأخذه الكبر والهوى وتغشت عيناه ظلمة الكفر وفقًا لقدر كتبه الله عليه.

قال تعالى:﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴿١١﴾وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴿١٢﴾وَبَنِينَ شُهُودًا﴿١٣﴾وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴿١٤﴾ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴿١٥﴾كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴿١٨﴾فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴿١٩﴾ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴿٢٣﴾فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴿٢٥﴾سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴿٢٩﴾عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴿٣٠﴾﴾(١).

فقد ورد عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن وكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له يا عم، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا تتعرض لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا، قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى،

(١) سورة المدثر، الآيات من رقم (١١) إلى رقم (٣٠).

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت – فذرني ومن خلقت وحيدًا – الآيات كلها[١].

*فالله رب العالمين خلق وقدر وهدى: خلق المخلوقات جميعها.. وقدر لكل مخلوق ماهيته وكيفية حياته والأسباب المؤهلة لها.. وهداه إلى اكتساب تلك الأسباب والتعامل معها.. هذا لكل المخلوقات..

وأما بالنسبة إلى الإنسان فقد خلقه وقدر له، وهداه كسائر المخلوقات، إلا أنه تعالى نظرًا لما كلفه به من أمور الاستخلاف في الأرض فقد جعل له سببًا مختلفًا عن باقي المخلوقات بل ومهمًا للغاية.. وبه يستطيع استخدام ما حوله مما هو منوط بالتعامل معه ألا وهو [العقل] فبه يسمو الإنسان على غيره من المخلوقات، بل ويدرك أن ما حوله مسخر له بأمر الله تعالى فيؤمن يقينًا بأن المؤثر الأول هو الله تعالى.

---

(١) أسباب النزول، للواحدي، صـ ٢٩٦.

المطلب الثالث

سنية الأخذ بالأسباب وتقاربها من فطرة الإنسان

إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضًا كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدّر النتائج والمسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الفرية، فالأسباب مقدّرة كالمسببات، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الرّقى، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: هي من قدر الله، وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب، وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل.

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيمانًا بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يطلب العون من الله، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل. وقال صلى الله عليه وسلم "..... وفر من المجذوم كما تفر من الأسد[1].

وما غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على فم الشعب، وحفر الخندق ولم يكن من عادة العرب، ولكنه من مكايد الفرس وحروبها، ولذلك أشار به سلمان الفارسي[2]، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الطب باب الجذام جزء من الحديث رقم (٥٣٨٧) **جـ ٥ صـ ٢١٥٨.**

(٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، جـ٦ ص ١٩٥، تأليف أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، ت: ٥٨١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١ ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

المدينة، وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها، والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق، واختبأ في الغار. وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والماء وهو سيد المتوكلين. ولهذا يذهب ابن القيم إلى: أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها "أي الأسباب" لا على محوها، ولا ننكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك "الإيمان"، وبالأسباب عرف الله، وبها أطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نُصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد وشقي، ومهتد وغاوٍ، فالوقوف معها،

والالتفات إليها، والنظر فيها، هو الواجب شرعًا، كما هو الواقع قدرًا. إن قدر الحق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط(١).

علمنا النبي صلى الله عليه وسلم الأخذ بالأسباب في أصعب الأمور وأسهلها.. وسوف يأتي تفصيل لبعض هذه الأحداث كنماذج للأخذ بالأسباب.

* الأخذ بالأسباب من تمام التَّوكل على الله، فإنَّ التَّوكل على الله سُبحانه بتفويض الأمر له عبادة من أجلِّ عبادات القلب التي يكتمل بها إيمان العبد، ويتقرب بها إلى ربه سبحانه، وهي عبادة تتجلى فيها وسطية الإسلام؛ إذ إن التَّوكل وسط بين طرفي نقيض مذمومين؛ فالمتوكل الحق بعيد عن اللامبالاة والتواكل، وبعيد كذلك عن الاعتقاد في الأسباب والاكتفاء بها. التّوكل الحق يجبر خللَ الأسباب، ويقوي ضعفها، وتُنال به إعانة الله سبحانه.

---

(١) الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، علي الصلابي، إسلام أون لاين، ٢٠٢٣، متاح على الرابط التالي: https: //tinyurl.com/4yxme927

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، ولعل من أهم الأمارات على مشروعية الأخذ بالأسباب ما ورد في قصص الأنبياء..فقد ورد الكثير والكثير بشأن الحرص على الأخذ بالأسباب والتعامل معها.. وهذا بالنسبة لأنبياء الله فكان ذلك لباقي البشر من باب أولى...

* فعلى سبيل المثال..

قصة سيدنا آدم عليه السلام والسيدة حواء، حيث إن في القرآن الكريم قصة خلق آدم وحواء وكيف أمر الله بأن يُسكنهما الجنة، وأن يتجنبا شجرة معينة. ومن خلال معصية آدم وحواء لأمر الله، يُظهر القرآن الكريم الأسباب لهذا العصيان ثم بين لنا جل وعلا الأسباب التي أعطاها لآدم عليه السلام للتكفير عن معصيته والتي عمل بها عليه السلام، وعلمها لنا كي نقتدي به في حياتنا وهي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه جل وعلا.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[1].

* وقصة سيدنا نوح: تُحكى في القرآن الكريم ودعوته لقومه للتوبة والعبادة الحقة. ويُظهر القرآن الكريم الأسباب التي اتخذها نوح عليه السلام لدعوة قومه، وأسباب رفضهم لرسالته وكيفية عقاب الله لهم بعد كل الأسباب.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى

(١) سورة البقرة، الآيات من رقم (٣٥) إلى رقم (٣٧).

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ۝٦٠قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ۝٦١أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٢أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٌ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ۝٦٤﴾[1]، وعن الأسباب التي اتخذها نوح عليه السلام في دعوته يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلًا وَنَهَارًا۝٥فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا۝٦وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا۝٧ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا ۝٨ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا ۝٩فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٍ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ۝١٢مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ۝١٤أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجًا ۝١٦وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجًا ۝١٨وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطًا ۝١٩لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلًا فِجَاجًا۝٢٠ ﴾[2]، وبعد كل هذه الوسائل طغى قوم نوح وأصروا على كفرهم فأمر الله نوح عليه السلام بصنع السفينة التي تحمل معنى الأخذ بالأسباب مع الإعجاز أيضًا.. أما الأخذ بالأسباب فإن قدرة الله تعالى صالحة لإنقاذ المؤمنين وإهلاك الكافرين دون سفينة.. ولكن الله تعالى أراد أن نتعلم الأخذ بالأسباب والعمل الدؤوب لنيل الفوز، كما أعطى أمدًا لقوم نوح يرون فيه تصنيع السفينة لعلَّ الله يوقظ عقولهم وأفئدتهم إلى حصول خطب عظيم.. فإن نوحًا عليه السلام كان يصنع السفينة في الصحراء هنا يظهر قدر خضوع نوح عليه السلام لأمر الله

---

(١) سورة الأعراف، الآيات من رقم (٥٩) إلى رقم (٦٤).

(٢) سورة نوح، الآيات من رقم (٥) إلى رقم (٢٠)

تعالى دون مناقشة.. وأما الإعجاز فيظهر حينما فار التنور وخرج منه الماء الذي أغرق قوم نوح.. ففي الآيات توضيح للأسباب ودقة الأخذ بها وبيان أنها لا تعمل إلا بإرادة الله تعالى.

*قصة سيدنا إبراهيم: يتضمن القرآن الكريم مشاهد عديدة عن سيدنا إبراهيم، ومحاولاته لتوجيه قومه إلى عبادة الله الواحد. يُظهر القرآن الكريم الأسباب التي اتخذها إبراهيم عليه السلام لدعوة قومه.. من ذلك مناظرته مع النمرود التي أقام عليه الحجة من خلالها أخذًا بالأسباب، والله غني عنها، بل والأسباب التي اتخذها قومه للقضاء عليه من إحراقه بالنار حتى يكون عبرة، وعنها توقفت الأسباب الدنيوية عن العمل وأصبحت تعمل وفقًا لإرادة الله وحده الذي حولها بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام فتحولت الأسباب الدنيوية المتخذة لما عرفت له إلى معجزة ظاهرة الدلالة على صدق إبراهيم عليه السلام وليس هذا فحسب.. بل أصبحت دليلًا على طواعيتها للمؤثر الأول الخالق العظيم، جل وعلا،

فصارت القصة دلالة على الأخذ بالأسباب والعمل بها ولكنها لا تؤثر إلا بإرادة الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ۝٦٨ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ۝٧١﴾[2]. وتذكر الآية الكريمة من أخذه بالأسباب هجرته من بلده عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة الآية، رقم (٢٥٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآيات من رقم (٦٨) إلى رقم (٧١).

*وكذلك قصة سيدنا موسى: حيث دعوته لفرعون وقومه للتوحيد، وتُظهر القصة العديد من الأسباب التي اتخذها موسى عليه السلام لدعوة قومه، والتي أدت إلى غضب فرعون ومحاولته قمع دعوة موسى وقومه، والتي كان منها ترك مصر والهجرة إلى الشام بعد أن أخذ بأسباب النجاة من فرعون وجنوده... قال الله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[1]، جبر توكلُه على الله سبحانه وتعالى ما قصرت عنه الأسباب؛ لمّا لحقه فرعون وجنوده، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ۝٦٢﴾[2]، ونجاه الله ومن معه من المؤمنين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن حياة النبي صلى الله عليه وسلم تعتبر مجالًا رحبًا لنماذج للأخذ بالأسباب ومن نماذج ذلك:

قبل ولادة النبي صلى الله عليه وسلم وقعت حادثة الفيل.. وفي طياتها إرهاص بولادة النبي الكريم.. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ۝٥﴾[3]، فالظاهر أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، يذكرنا تعالى بنعمته عليه؛ إذ عندما صرف ذلك العدو العظيم عام مولده السعيد عليه السلام إرهاصًا بنبوته؛ إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[4].

---

(١) سورة الدخان، الآية رقم (٢٣).

(٢) سورة الشعراء، الآيتان رقم (٦١)، (٦٢).

(٣) سورة الفيل.

(٤) البحر المحيط، جـ٨ ص ٥١١.

فلما حصلت هذه المعجزة كانت بمثابة التأمين لولادة النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية، وصارت تمهيدًا لها بحدث عظيم يذكر مع ذكرى عام ميلاده صلى الله عليه وسلم دائمًا، كما كانت بمثابة الإعلان عن هذه المنطقة، فمن خلال رحلات التجارة تم تناقل أنباء حادثة الفيل فالتفتت الأنظار إلى تلك المنطقة الكريمة.. وفيه توطيد لحقيقة حدوث أمر جلل يخرج منها[1].

كما كانت هذه الحادثة سببًا لأمان قريش في رحلاتها في الشتاء والصيف قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ۝٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾[2]. فمناسبتها لما قبلها ظاهرة، فذكر ذلك للامتنان عليهم؛ إذ لو سلط عليهم أصحاب الفيل لتشتتوا في البلاد والأقاليم، ولم تجتمع لهم كلمة[3]... ففي السورتين بيان لأعمال الأسباب وفق إرادة الله تعالى وتوضيح كون هذه الأسباب من نعم الله على عباده. وتتوالى أحداث في حياة النبي صلى الله عليه وسلم قد هيأ الله له فيها الأسباب وأتمها إلى أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة الدعوة إلى الله والتي من خلالها نجد النبي يتعامل مع الأمور وفق أسبابها ويرشد الصحابة إلى العمل بالأيسر منها.. فنجده في بداية الدعوة يأخذ منحى السرية حرصًا على المسلمين حيث كانوا قلة لم تقوَ شوكتهم بعد قال تعالى: "وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ[4]".

وأخذ في هذا المنهج لمدة ثلاث سنوات ثم بعدها امتثل لأمر الله ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[5]، وعندما بدأت المنهجية الجديدة للدعوة تحملها

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ٢٢ ص ٢٥٨، بتصرف، تأليف إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ت ٨٨٥هـ.

(٢) سورة قريش.

(٣) البحر المحيط، جـ٨ صـ ٥١٤ بتصرف.

(٤) سورة الشعراء، الآية رقم (٢١٤).

(٥) سورة الحجر، الآية (٩٤).

بأسبابها من المواجهة والمناظرة وإقامة الحجج وتعذيب المسلمين وتشريدهم، وكان صلى الله عليه وسلم يتحمل عناء ذلك كله إيمانًا بتأييد الله تعالى له ولصحبه وأنه ناصرهم، وأن هذه المرحلة تمحيص لإيمانهم فعلى أكتافهم سوف تبنى أعمدة الحياة المسلمة.. وعندما جاءه سيدنا خباب بت الأرت يسأله الدعاء بتخفيف العذاب ـ وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمكنه ذلك ـ إلا أنه هون عليه ما يلاقيه احتسابًا للثواب من الله ويقينًا منه أن هذه المحنة تحمل المنحة بعد وقت قريب واتخذ بأعمال أسباب الصبر والتقرب إلى الله لأنها العدة التي لا تنضب ويحتاجها المسلم لما بعد موته.. وكان القرآن الكريم يتنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فيردده خشية تفلته فقال تعالى له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾(١). فيعمل صلى الله عليه وسلم بالأمر... مستشعرًا أن الله مؤيده بل وأنه تعالى يعلمه ويرضى عن أفعاله وما لا يرضاه فإنه يعاتبه فيه.. وتستمر المحنة إلى عشر سنوات هي عمر الدعوة الجهرية في مكة قبل الهجرة، فقد خلالها النبي الكريم عمه أبا طالب، وزوجه الحبيب السيدة خديجة رضي الله عنها، وسيكون لهذا الفقد أثر واضح في قلب النبي صلى الله عليه وسلم حتى يسري الله تعالى عنه بمنحة كريمة وهي [الإسراء والمعراج] وفي تلك الليلة فرضت الصلوات الخمس(٢)، سبب اتصال بين العبد وربه خمس مرات وفي هذا تمهيد للهجرة لأن كيفية الصلاة لا بد وأن تؤدى بمأمن وليست مكة آمنة. وتعد رحلة الإسراء والمعراج سببًا لفتنة قوية فيها امتحان لمن حول النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾(٣).

(١) سورة القيامة، الآيات من رقم (١٦) إلى رقم (١٩).

(٢) جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، جـ١ ص ٦٨، تأليف أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، ت: ٤٥٦هـ، دار المعارف – مصر، ط ١ ١٩٠٠ م.

(٣) سورة الإسراء، جزء من الآية رقم (٦٠).

وجاءت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للقبائل كسبب متخذ لوجود مكان جديد يجتمع فيه المسلمون دون معاناة ولما رفضته القبائل لم ييأس حتى أن جبريل عليه السلام يخبره بقدرته على إهلاكهم بأمر من الله فيرفض صلى الله عليه وسلم متلبسًا بقوة الصبر واليقين بأنه قد يخرج من أصلابهم من يعبد الله.. فتأتي المنحة وعاقبة الصبر للنبي والصحابة بعد ما لاقوه من أصناف العذاب المختلفة (قتل ـ تشريد ـ تعذيب بدني . ونفسي ـ ومقاطعة) إلى غير ذلك... حيث قبل الأنصار مبايعة النبي صلى الله عليه وسلم "فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمكره والمنشط، وعلى أثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق حيث ما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم"(١).

وأمر النبي الصحابة بالهجرة للمدينة بعد العمل بكل الأسباب المتاحة في تلك الفترة.. وقد رسخ في النفوس ما أراده صلى الله عليه وسلم.. فأخذ بسبب جديد.. أرض جديدة.. وعند ذلك أمر بالهجرة سرًا خوفًا على الصحابة من بطش قريش.. وكان من الممكن أن يدعو الله فتكون هجرة آمنة، ولكنه عمل بالأسباب الدنيوية المادية ليعلمنا الأخذ بها.. بعد تعليم الصحابة.. وهنا تأتي هجرته صلى الله عليه وسلم بخطة أمنية باهرة بكل ما فيها.. من اتخاذ الصحبة في السفر (أبوبكر الصديق)، وإبقاء (علي بن أبي طالب) لرد أمانات قريش الموجودة عنده صلى الله عليه وسلم، وللتعمية على المشركين، وتجهيز الراحلتين، واتخاذ طريق للمدينة وعر لا يسهل قصده، ثم الاستعانة بمرشد ليعلم الطريق.. كل هذه أسباب اتخذها وهو غني بالله عنها.. فما حالنا نحن..؟!

(١) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، جـ١ ص١١٩، تأليف محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبوحاتم، الدارمي، البُستي، ت: ٣٥٤هـ، ط الكتب الثقافية – بيروت ط ٣ – ١٤١٧ هـ.

هذه بعض القصص والأحداث التي تتناول مشروعية الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، ويوجد الكثير من القصص والأحداث في القرآن الكريم التي تستعرض الأسباب والنتائج والعبر في حياة الأنبياء والأمم السابقة.

وهنا... لا بد من التَّأكيد على أنَّ توكُّل العبد على ربِّه سبحانه لا يُنافِي سعيه، وأخذه بالأسباب الدُّنيوية المشروعة؛ بل إنَّ الأخذ بالأسباب من تمام التَّوكل، والأدلة على ذلك كثيرة، منها:

أمر الله سبحانه للمؤمنين أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم؛أخذًا بأسباب النصر،قال الله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾[1].

والمعنى: خذوا عدتكم وآلتكم من السلاح، فانفروا: اخرجوا ثبات أي: سرايا متفرقين سرية بعد سرية، والثبات جماعات في تفرقة واحدتها ثبة، أو انفروا جميعًا أي: مجتمعين كلكم مع النبي صلى الله عليه وسلم[2]، ففي الآية توجيه كريم للأخذ بالأسباب البشرية للوصول إلى النصر.. وذلك مع قدرة الله على إحداث النصر دون أسباب ولكنه تعالى أراد تعليم أمته أمورًا كثيرة أهمها:

الأخذ بالأسباب المعروفة، وإعمال العقل وفق الوسائل المتاحة، واتخاذ القرار اعتمادًا على رؤية الموقف وليس على أمور محتملة، وبعد الأخذ بالأسباب كاملة قد يؤيد الله بالمعجزات فيتم الأمر على الوجه الأكمل.

القرآن الكريم بين لنا أن الأسباب هي الوسيلة التي يتحقق بها التمكين، والطريق الذي يوصل إليه هو الوسائل المادية سواء كانت اقتصادية، أو سياسية، أو صناعية، أو حربية، أو حضارية عمومًا.

---

(١) سورة النساء، الآية رقم (٧١).

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن، جـ١ص ٦٦١ بتصرف، تأليف محيي السنة، أبومحمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ت: ٥١٠هـ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ط ١ ١٤٢٠ هـ.

ونجد ذلك واضحًا في قصة ذي القرنين قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾[1] ".

إن القرآن الكريم أخبر بأن ذا القرنين استفاد مما منحه الله من وسائل وطرق وأسباب، وأنه أحسن استغلالها وإدارتها وتوظيفها والتعامل معها قال الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[2]؛ أي: أخذ بالأسباب والوسائل لبلوغ غايته، مما دلّ على فطنته وذكائه، وأنه تعامل مع نظام الأسباب بنجاح.

وفي نهاية الأمر.. تجب الإشارة إلى أن الإسلام يهتم بالعمل وبقيمته، ولا يربطه أبدًا بالنتائج وبما سيترتب عليه من آثار، إنما مجرد العمل هذا هو المطلوب، ولكن التَّوكل على الله يُساعد العبد على الرِّضا بقضائه والتَّسليم لأمره إن وقع ما لا يحب دون يأس أو إحباط .

---

(١) سورة الكهف، الآيات–من رقم (٩٤) إلى رقم (٩٧).

(٢) سورة الكهف، الآية رقم (٨٥).

المبحث الخامس

أنواع الأسباب في القرآن الكريم

مقدمة:

خلق الله عز وجل الأرض، وجعل القانون الذي يحكمها وينظم الحياة عليها هو قانون السببية، فلكي نحصل على نتيجة ما، لا بد من اتخاذ أسباب بعينها تؤدي إليها، والأسباب التي من شأنها أن تؤدي إلى حدوث النتائج تنقسم إلى قسمين: قسم مادي، وقسم معنوي.

القسم المادي هو القسم الذي يتعامل مع المادة المتعلقة بحدوث النتيجة المطلوبة، فالعطشان الذي يريد أن يرتوي عليه أن يشرب الماء، والجائع عليه أن يأكل ليشبع، والذي يريد الوصول إلى مكان ما عليه أن يسير إليه، أو يتخذ وسيلة مواصلات مناسبة تقوم بتوصيله للمكان الذي يريد... وهكذا، ونتائج الأسباب المادية معروفة غالبًا.

أما القسم المعنوي للأسباب فهو يتعلق بتنفيذ أمور غير مادية تؤدي إلى تحقيق نتائج مادية ملموسة، أو تنفيذ أمور مادية ليس لها علاقة ظاهرية بالنتائج التي، تُحدثها... ومن نماذج هذا القسم:

١/ **الاستغفار:** شيء معنوي، لكن الله عز وجل أخبرنا في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بأن للاستغفار نتائج مادية كقوله تعالى: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾[1] والمعنى يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمة. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعة ثم انصرف، فقال له قوم: ما رأيناك استسقيت يا أمير المؤمنين؟ فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجادح

(١) سورة نوح، الآيات من رقم (١٠) إلى رقم (١٢).

السماء، ثم قرأ الآية، وسقي رضي الله عنه، وشكا رجل إلى الحسن الجرب فقال له: استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال: استغفر إليه، وقال له آخر: ادعُ الله أن يرزقني ولدًا، فقال له استغفر الله، فقيل له في ذلك، فنزع بهذه الآية.

قال القاضي أبومحمد: والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو لفظ الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأعمال والأقوال، فكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه، وروي أن قوم نوح كانوا قد أصابهم قحط وأزمة، فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر، ثم ثنى بالأموال والبنين. قال قتادة: لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها فاستدعاهم إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها[1].

٢/ الدعاء أمر معنوي، لكنه من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مادية محسوسة فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2]. وإذا سألك عبادي أي: عن ذاته تعالى.. فإني قريب؛ أي فقل لهم ذلك بأن تخبر عن القرب بأي طريق كان.. وقال تعالى: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ ﴾ ولم يقل فأجبهم يا محمد بأني قريب للإشارة إلى أنه تعالى تكفل جوابهم ولم يكلهم إلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم؛ تنبيهًا على كمال لطفه، واطلاعه على سائر أحوالهم. وعن أبي قال: قال المسلمون يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله الآية.. "أجيب دعوة الداع إذا دعان" دليل للقرب، وتقرير له، وفيه وعد الداعي بالإجابة في الجملة على ما تشير إليه كلمة إذا لبيك يا عبدي، وهو موعود موجود لكل مؤمن يدعو ولا شرط أن يكون الداعي مطيعًا مخبتًا..... نعم كونه كذلك أرجى للإجابة لا سيما في الأزمنة المخصوصة، والأمكنة المعلومة، والكيفية المشهورة؛﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾؛ أي فليطلبوا إجابتي لهم إذا دعوني أو فليجيبوا لي إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، كما أني

---

(١) المحرر الوجيز، جـ٥ صـ ٣٧٤.

(٢) سورة البقرة، الآية رقم (١٨٦).

أجيبهم إذا دعوني لحوائجهم[١].. فجعل لنا تعالى سببًا لقضاء كل ما نريد وعلمنا كيف نسلكه وهدانا إليه بفضله تعالى بل وجعل الدعاء عبادة له تعالى فقد ورد عن النعمان بن بشير[٢]، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "الدعاء هو العبادة" ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[٣]،[٤] حيث أمر تعالى عباده بالدعاء، وجعله عبادة، وأوجب على نفسه الإجابة.

والفرق بين السبب المادي والمعنوي في القرآن يتمثل في أن السبب المادي يشير إلى الظواهر والأسباب الظاهرية والملموسة التي تؤدي إلى حدوث الأمر أو الحدث، بينما السبب المعنوي يشير إلى الأسباب الخفية والدوافع الداخلية التي تدفع شخصًا ما إلى القيام بعمل معين، أو اتخاذ قرار معين.

فمثلًا: في قصة سيدنا يوسف، يذكر القرآن الكريم أن السبب المادي لوقوع يوسف في البئر كانت خطة إخوته الذين ألقوه في البئر، ولكن السبب المعنوي وراء هذا الحدث كانت الغيرة والحسد الذين كانوا يشعرون بهما تجاه يوسف، وقد ورد ذكر السببين معًا في سورة يوسف، حيث يقول تعالى عن السبب المادي:

---

(١) روح المعاني والسبع المثاني، جـ٢ ص ٦٤،٦٣ بتصرف، تأليف محمود الألوسي أبوالفضل، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس الأنصاري أبو عبد الله نزل الكوفة وكان يليها لمعاوية ثم ولي قضاء دمشق وقتل بحمص قتله خالد بن خلي الكلاعي بعد وقعة المرج براهط وكان عاملا لابن الزبير [الثقات جـ٣ ص٤٠٩.]

(٣) سورة غافر الآية رقم (٦٠).

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب الدعوات باب ماجاء فى فضل الدعاء ح رقم (٣٣٧٢) جـ ٥ ص ٤٥٦ وقال الترمذى "هذا حديث حسن صحيح " [سنن الترمذي تأليف محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (ت: ٢٧٩هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ط٢، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾[1]، وعن السبب المعنوي يقول تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾[2].

إذن.. يمكن القول إن السبب المادي يشير إلى الأسباب الخارجية والمادية التي تؤدي إلى حدوث الأمر، بينما السبب المعنوي يشير إلى الأسباب الداخلية والنفسية التي تدفع الإنسان إلى فعل الأمر. ويمكن للسبب المادي والمعنوي أن يتداخلا في بعض الأحيان، حيث يؤثر السبب المعنوي على السبب المادي، ويؤدي إلى تغيير النتائج المتوقعة. وكذلك يمكن القول إن السبب المادي والسبب المعنوي يمثلان جانبين من نفس العملة، ولا يمكن الفصل بينهما بشكل كامل. فالعوامل المادية والظواهر الخارجية تؤثر على الأحداث والقرارات التي يتخذها الناس، ولكن العوامل المعنوية والدوافع الداخلية تشكل جزءًا أساسيًا من القرارات التي يتم اتخاذها، وتؤثر على النتائج التي تترتب على هذه القرارات.

وقد تحدث القرآن الكريم عن الأسباب المادية بشكل متكرر، حيث يشجع المؤمنين على استخدام الأسباب المادية المتاحة لديهم لتحقيق الأهداف التي يسعون إليها. ويذكر القرآن الكريم العديد من الأسباب المادية المختلفة، مثل العمل والاجتهاد في التجارة والزراعة والبناء وغيرها.

---

(١) سورة يوسف، الآيات من رقم (١١) إلى رقم (١٥).

(٢) سورة يوسف، الآيتان رقم (٨)، (٩).

فعلى سبيل المثال، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1]؛ أي: أنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، وقيل: المراد الزكاة المفروضة من قبل أن يأتي أحدكم الموت بأن تنزل به أسبابه ويشاهد حضور علاماته، "فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب"؛ أي: هلا أمهلتني وأخرت موتي إلى أجل قريب؛ أي: أمد قصير فأصدق أي: فأتصدق بمالي وأكن من الصالحين[2].

وهذا يدل على أن الله يأمر المؤمنين بالإنفاق مما رزقهم وهو المال، وقد يكون غيره يدخل معه، والأولى أن يكون المال الذي أعطاه الله للإنسان ليكون سببًا في تحسين معيشته فهو سبب مادي جعله الله مستخدمًا للترقي في الآخرة، مع إمكانية الاستمتاع به في الحياة أيضًا فالله تعالى يشجع عباده على استخدام الأسباب المادية لتحقيق الخير والبركة في حياتهم وآخرتهم كذلك.

كما يقول جل وعلا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3]، وهذا يدل على أن المؤمنين يجب أن يسعوا للحصول على الخير والبركة في الدنيا والآخرة، ويستخدموا الأسباب المادية المتاحة لديهم لتحقيق ذلك، ولكن بناءً على الأسس الإيمانية والأخلاقية.

ويؤكد أيضًا أن الله قد سن لنا أن نأخذ بالأسباب جميعها لنعيش على الأرض وفق ما أراد امتثالًا لأمر الله فينا نحن البشر بالاستخلاف في الأرض.

---

(١) سورة المنافقون، الآية رقم (١٠).

(٢) فتح القدير، جـ٥ ص ٢٧٨، تأليف محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليمني، ت: ١٢٥٠هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ط ١ ١٤١٤ هـ.

(٣) سورة القصص، الآية رقم (٧٧).

ويشجع الله تعالى في القرآن الكريم المؤمنين على العمل والاجتهاد، ويقول: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾[1]، ففي الآية بيان لعدم إثابة الإنسان بعمل غيره إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب غيره، وأن ليس له بالعدل إلا ما سعى، وله بالفضل ما شاء الله تعالى[2].

وفي هذا دليل على أن الإنسان يجب أن يعمل بجد واجتهاد لتحقيق الأهداف التي يسعى إليها، وأن الله سيجزيه على جهوده وسعيه.

وعلى المؤمن أن يعتمد بعض الأسس الإيمانية عند اتخاذه لسبب مادي، حيث هذه الأسس هي السبب لإتمام العمل على أفضل وجه.

فمن الأسس الإيمانية: الاعتماد على الله والتوكل عليه، فكما يجب على المؤمنين أن يعملوا بالأسباب المادية، وجب عليهم أن يتوكلوا على الله في تحقيق النتائج المرجوة، وأن يعلموا أن تحقيق النجاح والتوفيق في الحياة يأتي من عند الله.

ومن الأسس الأخلاقية الصدق والأمانة والعدل. يجب على المؤمنين أن يعملوا بالأسباب المادية بطريقة صادقة وأمينة، وأن يحرصوا على العدل في كل ما يقومون به، وأن يتجنبوا الغش والخداع في التعاملات المادية.

بالتالي؛ يجب على المؤمن أن يتحلى بالإيمان والأخلاق الحسنة عند استخدام الأسباب المادية، وأن يتوكل على الله في تحقيق النجاح والتوفيق في الحياة، وأن يتعاون مع الآخرين ويحترم حقوقهم، وأن يعمل بجد واجتهاد وصدق وأمانة.

من خلال ما سبق يتبين أن: الأسباب المادية وثيقة الصلة بالأسباب المعنوية بل هي مؤثر قوي جدًا في إتمام العمل المراد.

---

(١) سورة النجم، الآيتان رقم (٣٩)، (٤٠).

(٢) روح المعاني، جـ٢٧ صـ٦٦، بتصرف.

فهل نتجه إلى الأسباب المعنوية باعتبار أن نتائجها كبيرة ولا تكلفنا شيئًا، ونترك الأسباب المادية.. نترك التداوي.. نترك الطعام.. نترك.... ونتجه إلى الدعاء والصدقة والاستغفار..؟ بالطبع هذا يعد خطأ نظرًا لارتباط النوعين واشتراكهما في التأثير على المسبب.

ومن الأمور التي توضح ذلك.. الصلاة.. فهي عمل مادي بالجوارح يتخللها الدعاء إلى الله تعالى، وتعتمد في قبولها على إخلاص النية لله تعالى في القول والعمل.

وتتنوع الأسباب المادية والمعنوية حسب الأمور الحياتية حول الإنسان.. ويمكن حصر هذه الأنواع في: الأسباب [الطبيعية، الاجتماعية، العقلية، الشرعية، الروحية].

أولًا الأسباب الطبيعية: وهي الأسباب التي تتعلق بالظواهر الطبيعية والكونية، مثل: الأمطار والرياح، والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، وذكرت في القرآن الكريم كعلة لظهور الأشياء وحدوث الأحداث. قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾[1]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾[2]، فالآية الكريمة تبين لنا أن الرياح كانت سببًا لتجمع السحاب، والسحاب كان سببًا لنزول ماء المطر، وهو بدوره سبب لخروج النبات من الأرض، فالأسباب يتبع بعضها بعضًا وفي الآية . أيضًا . إشارة إلى أن الأحوال الإنسانية هي الأخرى مرتبطة بأسبابها.

(١) سورة نوح، الآيتان رقم (١١)، (١٢).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٥٧).

ومن الأمثلة أيضًا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾(١).

قال الرازي: "لا شك أنه تعالى قادر على خلق هذه الثمار ابتداءً من غير هذه الوسائط... إلا أنا نقول: قدرته على خلقها ابتداءً لا تنافي قدرته عليها بواسطة خلق هذه القوى المؤثرة والقابلة في الأجسام... وإنما أجرى الله تعالى العادة بأن لا يفعل ذلك إلا على ترتيب وتدريج(٢).

ثانيًا: الأسباب الاجتماعية: وهي الأسباب التي تتعلق بالعلاقات الاجتماعية بين الناس، مثل: الزواج، والطلاق، والميراث، والعدل، والإنصاف، والمحبة، والتعاون، والإخاء، وذُكرت في القرآن الكريم كأسباب لتقريب الناس من بعضهم البعض، وتحقيق السلام والاستقرار في المجتمع. ونجد كذلك أن الله تعالى ربط الثواب والعقاب بأسبابهما، فالقتل العمد سبب للقصاص بالقتل، والسرقة سبب لقطع اليد، والزنا سبب للجلد أو الرجم، والاستغفار سبب للتوبة، والإيمان سبب لدخول الجنة، والكفر سبب لدخول النار، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: (٥).
(٢) مفاتيح الغيب، ج٢، ص١٢١.
(٣) سورة الفرقان، الآية رقم (٦٨).
(٤) سورة الحجرات، الآية رقم (١٣).

بيان لما ترتب على خلقهم على تلك الصورة، والحكمة من ذلك. والمعنى: خلقناكم– أيها الناس– من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبًا وقبائل لِتَعارَفُوا أي: ليعرف بعضكم نسب بعض، فينتسب كل فرد إلى آبائه، ولتتواصلوا فيما بينكم وتتعاونوا على البر والتقوى، لا ليتفاخر بعضكم على بعض بحسبه، أو نسبه، أو جاهه. وقوله– سبحانه–: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ تعليل لما يدل عليه الكلام من النهي عن التفاخر بالأنساب؛ أي: أن أرفعكم منزلة عند الله، وأعلاكم عنده– سبحانه– درجة.. هو أكثركم تقوى وخشية منه– تعالى– فإن أردتم الفخر ففاخروا بالتقوى وبالعمل الصالح[1]. فالتعارف بيننا والنسب والمصاهرة كلها نتائج مسببة عن الخلقة الأولى من آدم وحواء عليهما السلام

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿مِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾[2] فالله تعالى خلق الذكر والأنثى، وجعل كلًا منهما سكنًا للآخر وفق ميثاق واضح محدد وهو الزواج وشرط له شروطًا كي يتم في طاعة وأسس له قواعد محكمة كي يستمر ويؤدي مهمته في المجتمع.

ثالثًا: الأسباب العقلية: وهي الأسباب التي تتعلق بالعقل والفكر والعلم، مثل الاعتقاد بالله، والتفكر في خلقه، وتدبر آياته، والتعلم، والتعليم، والتفكير النقدي، وذُكرت في القرآن الكريم كأسباب لتطوير الذات، والاستفادة من الخبرات، وتحقيق النجاح والتفوق في الحياة. والسبيل لكل هذه الأهداف العلم فهو السبب المتخذ لذلك... وفي قصة موسى عليه السلام والخضر ما يحفز على السعي للعلم والمعرفة وفق حدود معينة ترشدنا لوجود الله، وتعلمنا طاعته جل وعلا... وقد

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم للطنطاوي، جـ١٣ صـ ٣١٩، تأليف محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، ط١.

(٢) سورة الروم، الآية رقم (٢١).

حض تعالى في القرآن الكريم على العلم وإعمال العقل حيث يقول تعالى:﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]،

وجعل هناك فرقًا بين العالم وغيره حيث يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، كما أمرنا بسؤال أهل العلم عند الحاجة لإجابة سؤال ما حيث يقول تعالى:﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

رابعًا: الأسباب الشرعية: وهي الأسباب التي تتعلق بالأحكام الشرعية والتعاليم الدينية، مثل: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، والأخلاق الحميدة، وذُكرت في القرآن الكريم كأسباب لاكتساب الثواب، والتقرب إلى الله، وتحقيق الفلاح في الدنيا والآخرة.

يقول تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾[4]، فقد جعل الله تعالى الصلاة في هذه الأوقات المحددة سببًا للوصول لمقام محمود عنده تعالى.

والأسباب الشرعية تعرف بأنها الأحداث، أو الظروف، أو العوامل التي تؤدي إلى وقوع الحكم الشرعي أو تغييره. وتُعتبر الأسباب جزءًا هامًا في استنباط الأحكام الشرعية وفهمها. وأمثلة ذلك كثيرة في القرآن، مثل سبب تحريم الزواج من الربيبة يقول تعالى:﴿... وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ

(١) سورة آل عمران، جزء من الآية رقم (٧).
(٢) سورة الزمر، جزء من الآية رقم (٩).
(٣) سورة النحل، جزء من الآية رقم (٤٣).
(٤) سورة الإسراء، الآيتان رقم (٧٨)، (٧٩).

فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ...﴾[١]، فإن سبب التحريم مهم جدًا، وإن زال فإن التحريم يزول أيضًا.

خامسًا: الأسباب الروحية: وهي الأسباب التي تتعلق بالروحانية والتصوف، مثل: الاستغفار، والذكر، والتوبة، والتفكر في الله، والتواضع، والتقرب إلى الله، وذُكرت في القرآن الكريم كأسباب لتحقيق السعادة الحقيقية، والاطمئنان النفسي والراحة.. وكل هذه الأمور من الأسباب المعنوية التي تلزم إخلاص النية عند الأخذ بها.

ونلاحظ أن هذه الأسباب إنما هي أسباب جعلية وليست ذاتية، أي: جعلها الله أسبابًا وربط بينها، وله أن يفصل هذا الارتباط، فيوجد المسبَّب دون سبب، كما هو الشأن في المعجزات. فالآيات التي تشير إلى السببية هي ذاتها التي تشير إلى أن هذه السببية جعلية، وذلك بدلالة الضمير، أو اسم الجلالة، فإذا رجعنا إلى الأمثلة السابقة نلاحظ ذلك، مثل: (وهو الذي يرسل الرياح... سقناه... فأنزلنا... فأخرجنا...) فيريد تعالى أن يذكر الإنسان دائمًا بأنه المؤثر في الأسباب بذاته، وقد يوجد الشيء على غير سبب وفق إرادته جل وعلا.. فلا يستقل السبب بنفسه، بل قد يحدث ما يريده الإنسان بغير سبب مباشر.

ومن هنا نفهم معنى الآيات التي تنفي السببية، فهي إنما تنفي ذاتية السببية واستقلالها عن الله تعالى، فمن هذه الآيات قوله تعالى:﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ٦٣ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾[٢].

---

(١) سورة النساء، جزء من الآية رقم (٢٣).

(٢) سورة الواقعة، الآيات من رقم (٦٣) إلى رقم (٧٠).

تؤكد هذه الآيات أن الله تعالى هو صاحب الملك، القائم بأمر الكون كله، المدبر لشؤونه. فهو كما قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] ".

ويقول تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[2]. فالمراد من الإذن – هنا – التخلية بين المسحور وضرر السحر؛ وفيه دليل على أن فيه ضررًا مودعًا، إذا شاء الله تعالى حال بينه وبينه، وإذا شاء خلاه وما أودعه فيه، وهذا مذهب السلف في سائر الأسباب والمسبَّبات[3] ،

وبهذا يمكن أن نخلص إلى النتيجة التالية... أن القرآن الكريم أكد مبدأ السببية، واعتبر الأسباب أسبابًا جعلية وليست ذاتية، فالأسباب داخلة في قسم الممكنات التي تتسلط عليها القدرة الإلهية فتصرفها كيف شاءت.

---

(١) سورة آل عمران، الآية رقم (٢٦).
(٢) سورة البقرة، جزء من الآية رقم (١٠٢).
(٣) روح المعاني، ج١، صـ٣٤٣.

المبحث السادس

نماذج من أساليب القرآن في التعبير عن الأسباب

في القرآن الكريم، تُستخدَم عدة طرق للتعبير عن السبب والمسبب، قد يتم ذكر السبب بوضوح وصراحة في الآية، أو قد يتم تلميح إليه من خلال السياق العام للآيات، وهناك أيضًا استخدام للأمثلة والتشبيهات لتوضيح السبب والمسبب.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾(١).. فهنا أسلوب الآية يوضح السبب والمسبب عنه بباء السببية؛ أي أخرج بسببه الثمرات فالماء سبب مادي طبيعي، والناتج عنه النبات أيضًا هو مادي طبيعي، والتعبير عن السببية أيضًا واضح، ومع ذلك لا يعمل السبب في المسبب إلا باذن من الله تعالى.

ومثله قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾(٢)؛ أي بسبب ما فعلتم في الدنيا بعد فضل الله عليكم بالتوفيق للعمل الصالح.

ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾(٣)، فهنا يوضح الله أنه جعل البشر خلفاءَ على الأرض، ورفع بعضهم فوق بعض بدرجات مختلفة ليبتليهم في ما أعطاهم(٤).

أما قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾(٥)، ففيه ما يفيد السبب والنتيجة المسببة بأسلوب الشرط والجزاء عليه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٢).

(٢) سورة الحاقة، الآية: (٢٤).

(٣) الأنعام، الآية (١٦٥).

(٤) التفسير الوسيط للواحدي، جـ٢ ص ٣٤٦.

(٥) سورة الطلاق، الآية: (٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾[1]فجاء التعبير عن السبب في البعد عن الشيطان، وعدم طاعته أنه يأمر بالفحشاء والمنكر، وهو مفهوم من معنى الآية مستنبط فظاهره الخبر، ومعناه الأمر.

كما نجد في بعض الآيات كلمات معينة للتعبير عن السبب والمسبب من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾[2]؛ أي ينفقون لأجل رضا الله تعالى عنهم فجزاؤهم يكون بفضل الله تعالى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾[3]، وهنا يشير الله إلى أن الصبر والصلاة يعتبران السبب المساعد للتغلب على الصعاب، والمشاكل في الحياة فأرشد إليهما وحث على ذلك بأسلوب الأمر بيانًا لقيمتهما.

ومما ورد أيضًا في التعبير عن السبب والمسبب.. ما جاء في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾[4] فقد عبر عزيز مصر عن سبب شرائه يوسف عليه السلام بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾؛ أي لعله أرجى لذلك فهذا سببه الظاهر, أما غير الظاهر فكان سببًا لاستكمال أحداث قصة يوسف عليه السلام لتتجلى حكمة الله فيها.

وفي كل ما سبق من نماذج نجد أن قدرة الله تعالى هي التي تؤثر في إعمال السبب في المسبب، كما نجد التنوع بين الأسباب المادية والمعنوية على اختلاف أشكالها طبيعية . عقلية . اجتماعية... وغيرها فكأن للقرآن الكريم في كل آية شكلًا من الأسباب والمسببات.

(١) سورة البقرة، الآية (٢٦٨).
(٢) سورة البقرة، جزء من الآية رقم (٢٦٥).
(٣) سورة البقرة، الآية رقم (٤٥).
(٤) سورة يوسف، الآية (٢١).

المبحث السابع

العلاقة بين الأسباب وقضاء الله تعالى

مصطلح "القضاء" يُشير إلى فكرة أو مفهوم متعدد الأبعاد يتعلق بالعدالة، والحكم الإلهي، والإرادة العليا. يتم استخدام هذا المصطلح للإشارة إلى قوة إلهية تقوم بتنظيم وتوجيه الأحداث، وتحقيق العدالة في الكون، فالقضاء: فصل الأمر على التمام(١)... ولما كان المسلم يعلم أنه لا ينفذ في ملك الله إلا ما يريد..فهم أن أخذه بالأسباب ما هو إلا تسليم لقضاء الله الذي لا يقضي إلا بالخير...

إن المكلف يتعاطى السبب امتثالًا لأمر ربه، مع علمه ويقينه أنه لا يقع إلا ما يشاء الله وقوعه، فهو متوكل على الله، عالم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له من خير أو شر، ولو شاء الله تخلف تأثير الأسباب عن مسبباتها لتخلف(٢). ومن أصرح الأدلة في ذلك:

١-**نبي الله إبراهيم عليه السلام: قال الله تعالى:** ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾(٣)، **حين اجتمع الكفار يريدون تحريقه بالنار فألقوه فيها فلم يحترق، فقد وُجد عند ذلك السبب الذي هو النار، وأطاع إبراهيم عليه السلام، وتخلَّف المسبَّب الذي هو الإحراق فلم يحترق إبراهيمُ عليه السلام، فدل ذلك دلالة قاطعة على أن التأثير حقيقة إنما هو بمشيئة خالق السموات والأرض، وأنه يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، وأنه لا تأثير لشيء من ذلك إلا بمشيئته جل وعلا.**

٢-**ضرب ميت بني إسرائيل: قال الله تعالى:** ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾(٤)، **فهنا جعل الشيء سببًا**

---

(١) معجم الفروق اللغوية، جـ١ ص ٤٣١.

(٢) شفاء الضرر بفهم التوكل والقضاء والقدر، ص٤٣. أبوفيصل البدراني.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: (٦٩).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٧٣).

لشيء آخر مع أنه مناف له، كجعله ضرب ميت بني إسرائيل ببعض من بقرة مذبوحة سببًا لحياته؛ إذ لا تكسب الحياة من ضرب بميت، وذلك يوضح أنه جل وعلا يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير البتة إلا بمشيئته جل وعلا...وقال الله تعالى للسيدة مريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(١)، **فهنا جعل الشيء سببًا لشيء آخر مع أنه منافٍ له، كجعله هز الجذع سببًا في إسقاط الرطب؛ إذ لا تستطيع امرأة نفساء أن تهز النخلة، وذلك يوضح أنه جل وعلا يسبب ما شاء من المسببات على ما شاء من الأسباب، ولا يقع تأثير إلا بمشيئته جل وعلا.... فالله تعالى يقدر الأسباب ويوفقنا لها، وإذا أراد إعمالها تم الأمر وإلا فلا..**

وفي قصة سحر النبي صلى الله عليه وسلم نموذج واضح لخلق السبب وتقدير تأثيره، وبيان لالتزام النبي الرضا بقدر الله والتسليم له.. والأخذ بالأسباب لعلاجه حرصًا على تعليم أمته في كل ما مر به... عن عائشة، رضي الله عنها قالت: "سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندي، لكنه دعا ودعا، ثم قال: "يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه، أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان" فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس من أصحابه، فجاء فقال: «يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، أو كأن رءوس نخلها رءوس الشياطين» قلت: يا

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٥.

رسول الله: أفلا استخرجته؟ قال: «قد عافاني الله، فكرهت أن أثور على الناس فيه شرًا» فأمر بها فدفنت[١].

وموطن الشاهد هنا صدق توكل النبي صلى الله عليه وسلم وتسليمه لقضاء الله فيه.. وقد ورد في هذا الحديث الشريف الكثير من التأويلات والرد عليها، وليس هذا محل تفصيلها.. وعلى سبيل الإجمال أجد ما ذكره ابن حجر في الفتح مفيدًا وملخصًا للمراد حيث ورد فيه:

قال عياض: فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على تمييزه ومعتقده[٢].

قد أنكر هذا طائفة من الناس، وقالوا: لا يجوز هذا عليه، وظنُّوه نقصًا وعيبًا، وليس الأمر كما زعموا، بل هو من جنس ما كان يعتريه من الأسقام والأوجاع، وهو مرض من الأمراض، وإصابته به كإصابته بالسم لا فرق بينهما[٣].

عندما أصيب النبي صلى الله عليه وسلم التزم الدعاء لرفع البلاء، وعندما أذن جل وعلا في إنهاء الشدة أرسل للنبي صلى الله عليه وسلم بسبيل العلاج، وقام به النبي صلى الله عليه وسلم، وتم الشفاء بأمر الله.... في قصة عجيبة حتى لا يستبعد إنسان صعوبة السحر وتأثيره على حياة الإنسان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب السحر، ح رقم (٥٤٣٠)، جـ٧ ص ١٣٦.

(٢) فتح الباري . لابن رجب، جـ١٠، ص ٢٢٦.

(٣) تأليف زين الدين أبوالفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، دار ابن الجوزي – السعودية / الدمام – ١٤٢٢هـ، ط ٢.

الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج والتوصيات الآتية:

أولا: النتائج:

١. أن حكمة الله اقتضت ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، وأن العلاقة السببية لا تقتصر على السنن والظواهر الكونية فحسب، بل تشمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فهي أيضًا ترتبط بعلاقات سببية، وكذلك الأحكام الشرعية.

٢. أن تأثير السبب في المسبب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبب وحدوثه أو عدم حدوثه.

٣. أن التوكل على الله ليس بمانع من اتخاذ الأسباب؛ إذ لا توكل إلا بعد الأخذ بها. فالتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب فيه معنى الشعور بالنقص والعجز الإنساني، وفيه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته.

٤. أن المؤمن إذا توكل على الله بعد الأخذ بالأسباب؛ فإنه يتحرر من العبودية للأسباب، وتعلق قلبه بها.

٥. أن الأخذ بالأسباب فيه امتثال لأمر الله وطاعته، وأن من رفض الأخذ بها فقد ضاد الله في أمره.

٦. أن الأخذ بالأسباب فيه نصرة لأهل الحق، فلو أن أهل الحق اتخذوا كل أسباب القوة، وقد جانبوا الهوى والشهوات لكانوا غالبين لا محالة، وما يغلب أهل الباطل إلا لعدم اتخاذ أهل الإيمان الأسباب.

٧. أن حكمة الله اقتضت ربط الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها، وأن العلاقة السببية لا تقتصر على السنن والظواهر الكونية فحسب، بل تشمل العلاقات الإنسانية والاجتماعية، فهي أيضًا ترتبط بعلاقات سببية، وكذلك الأحكام الشرعية.

٨. أن تأثير السبب في المسبب ليس حتميًّا؛ إذ إن القدرة الإلهية هي المنوطة بتأثير السبب في المسبب وحدوثه أو عدم حدوثه.

٩. أن التوكل على الله ليس بمانع من اتخاذ الأسباب؛ إذ لا توكل إلا بعد الأخذ بها. فالتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب فيه معنى الشعور بالنقص والعجز الإنساني، وفيه ضراعة وإحساس بالكمال المطلق لله تعالى وقدرته.

ثانيا: التوصيات:

- لابد من النظر بدقة فى معنى الأسباب.. وأنواعها والتمعن في تأثيراتها المادية والمعنوية.
- ابراز معنى العلاقة بين السبب والمسبب والتأكيد على أن هذه العلاقة لا تخرج عن نطاق قدرة الله تعالى فإذا أراد الامر كان وإلا فلن يكن.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

أولاً- كتب تفسير القرآن الكريم وعلومه:

١- أسباب النزول، تأليف أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، ت: ٤٦٨هـ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، سنـ ١٣٨٨ ـة هـ- ١٩٦٨ م.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف ناصرالدين أبوسعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط دار الفكر بيروت.

٣- البرهان في علوم القرآن، تأليف أبوعبدالله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ت: ٧٩٤ هـ، ط ١١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاؤه.

٤- تفسير القرآن العظيم، تأليف أبوالفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ت: ٧٧٤هـ، دار الفكر الطبعة الجديدة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٥- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، تأليف أبوالبركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي ت ٧١٠، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١٤١٩،١ هـ - ١٩٩٨ م.

٦- التفسير الوسيط للقرآن الكريم للطنطاوي، تأليف محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ط١.

٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبوجعفر الطبري، ت: ٣١٠هـ، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١ ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٨- روح المعاني والسبع المثاني، تأليف محمود الألوسي أبوالفضل دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٩- فتح القدير، تأليف محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، ت: ١٢٥٠هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت ط ١ ١٤١٤ هـ.
١٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . تأليف أبوالقاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، ت: ٥٣٨هـ. دار إحياء التراث العربي - بيروت.
١١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف أبومحمد عبد الحق بن غالب بن عبدالرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت ٥٤٢هـ، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤٢٢ هـ.
١٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن، تأليف محيي السنة، أبومحمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ت: ٥١٠ هـ، ط دار إحياء التراث العربي- بيروت ط ١ ١٤٢٠ هـ.
١٣- مفاتيح الغيب، تأليف أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ت: ٦٠٦هـ، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ سنة١٤٢١هـ.
١٤- مفردات ألفاظ القرآن، تأليف العلامة الراغب الأصفهاني، ت ٤٢٥، ط دار القلم دمشق.
١٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور بتصرف، تأليف إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، ت ٨٨٥هـ.
١٦- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تأليف أبوالحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي ت: ٤٦٨، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان ط١، ١٤١٥ هـ-١٩٩٤م.

ثانياً- كتب الحديث وشروحه وعلومه:

١٧- صحيح البخاري، تأليف محمد بن إسماعيل أبوعبدالله البخاري الجعفري، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧/١٩٨٧.

١٨- صحيح مسلم، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تأليف مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ.

١٩ ـ سنن الترمذي تأليف محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر ط ٢، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

٢٠- فتح الباري . لابن رجب، تأليف زين الدين أبوالفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، دار ابن الجوزي – السعودية / الدمام – ١٤٢٢هـ، ط ٢.

٢١ ـ الثقات، تأليف محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهنديةالناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند

ثالثاً- كتب أصول الفقه وقواعده وتاريخه:

٢٢- أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله ـ عياض السلمي.

رابعاً- كتب السيرة:

٢٣- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى لابن حزم، تأليف أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، ت: ٤٥٦هـ، دار المعارف – مصر ط ١ ١٩٠٠ م.

٢٤- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تأليف أبوالقاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي ت: ٥٨١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٥- زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، ت: ٧٥١هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ط ٢٧ ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.

٢٦- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تأليف محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبوحاتم، الدارمي، البُستي ت: ٣٥٤هـ، ط الكتب الثقافية-بيروت ط ٣- ١٤١٧ هـ.

كتب المعاجم واللغة:

٢٧- لسان العرب: تأليف محمد بن مكرم بن علي، أبوالفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي ت ـ ٧١١هـ، الناشر: دار صادر – بيروت ط ٣ /١٤١٤.

٢٨- معجم الفروق اللغوية، تأليف أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ت ٣٩٥هـ . مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» ط ١١٤١٢هـ.

٢٩- المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، تأليف د/جميل صليبا عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

٣٠- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي.

٣١- التعريفات تأليف علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: ٨١٦هـ). الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ط ١ ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

خامساً- بحوث وروابط إلكترونية:

٣٢- الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم، علي الصلابي، إسلام أون لاين، ٢٠٢٣، متاح على الرابط التالي: https: //tinyurl.com/4yxme927

٣٣- القدرة الإلهية والأسباب في القرآن الكريم "سورة مريم نموذجًا"، رحاب رفعت فوزي ـ مجلة الدراسات الإسلامية والبحوث الأكاديمية.

Sources and References

The Holy Quran

First: The Books of Exegesis of the Holy Quran and its Sciences:

1- Asbab An-Nozol, Abu Al-Hasan Ali ibn Ahmad ibn Muhammad ibn Ali Al-Wahhadi, An-Naysaburi, 468AH, Al-Halabi and Partners Foundation for Publishing and Distribution, 1388 AH - 1968 AD.

2- Anwar At-Tanzil wa Asrar At-Tawil, Nasser Ad-Din Abu Said Abd Allah bin Omar bin Muhammad Ash-Shirazi Al-Baydawi, Dar Al-Fikr Beirut.

3- Al-Borhan fi Uloum Al-Quran, Abu Abdullah Badr Ad-Din Muhammad bin Abdullah bin Bahader Az-Zarkashi, 794 AH, 1376 AH - 1957, Dar Ihyaa Al-Kutub Al-Arabiya Issa Al-Babi Al-Halabi and Partners.

4- Tafsir Al-Quran Al-Azeem, Abu Al-Fida Ismail Ibn Umar Ibn Kathir Al-Qurashi Ad-Dimashqi, 774AH, Dar Al-Fikr, New Edition, 1414AH/1994AD.

5- Tafsir An-Nasfi, Madarek At-Taweel wa Haqaeq At-Tanzil, An-Nasafi, Beirut, Dar Al-Kalem At-Tayeb, 1419AH/1988AD.

6-At-Tafsir Al-Waseet li Al-Quran Al-Karim, At-Tantawi, Muhammad Sayyid Tantawi, Dar Nahdet Misr for Printing, Publishing and Distribution, Al-Fajalah – Cairo, 1st Edition.

7-Jamea Al-Bayan an Taweel Aay Al-Quran, At-Tabari, Dar Hajar, 1st edition, 1422AH - 2001AD

8-Rouh Al-Many wa As-Sabaa Al-Mathany Mahmoud Al-Alusi Abu Al-Fadl, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi – Beirut.

9- Fatah Al-Qadeer, Muhammad bin Ali bin Muhammad bin Abdullah Ash-Shawkani Al-Yemeni, 1250AH, Dar Ibn Kathir, Dar Al-Kalam At-Tayeb - Damascus, Beirut, 1st Edition 1414 AH.

10- Al-Kashaf an Haqaeq At-Tanzeel wa Oyoun Al-Aqaweel fi Wogouh At-Taweel, Az-Zamakhshari, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi. Beirut".

11-Al-Moharer Al-Wagez fi Tafsir Al-Kitab Al- Aziz, Abu Muhammad Abdul Haq bin Ghalib bin Attia Al-Andalusi Al-Maharbi, 542AH, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah – Beirut, 1st edition - 1422 AH.

12- Maalem At-Tanzil fi Tafsir Al-Quran, Muhy As-Sunnah, Abu Muhammad Al-Husayn ibn Masud ibn Muhammad ibn Al-Fur Al-Baghawi Al-Shafii, d. 510 AH, Dar Ihyaa At-Turath al-Arabi, Beirut, 1420 AH.

13- Mafateh Al-Gayb, Fakhr Ad-Din Al-Razi, 606AH, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, 1st Edition, 1421AH.

14- Mofrdat Al-Faz Al-Quran, Al-Isfahani, Dar Al-Qalam Damascus.

15- Nazm Ad-Dor fi Tanasub Al-Ayat wa As-Sawar, Ibrahim bin Omar bin Hassan Al-Rabat bin Ali bin Abi Bakr Al-Buqai.

16-Al-Waseet fi Talef Al-Quran A-Mageed, Abu Al-Hasan Ali ibn Ahmad ibn Muhammad ibn Ali Al-Wahhdi, An-Naysaburi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut – Lebanon, 1st Edition, 1415AH - 1994

2. Hadith books, annotations and sciences:

17- Sahih Al-Bukhari, Muhammad bin Ismail Abu Abdullah Al-Bukhari Al-Jaafari, Dar Ibn Kathir, Al-Yamamah, Beirut, 3rd Edition, 1407/1987.

18- Sahih Muslim, Al-Musnad As-Sahih Al-Mukhtasar, Muslim Ibn Al-Hajjaj.

Third: Books of jurisprudence, its rules and history:

22-Usul Al-Fiqh Alazi la Yassea Al-Muslim Jahluh-Ayad As-Salami.h

IV. Biographies:

23-Gawamea As-Sera wa Khames Raseal Ukhra, Ibn Hazm Al-Zaheri, Dar Al-Maarif – Egypt, 1st edition 1900 AD.

26-As-Sirah An-Nabaweya wa Akhbar Al-Khulfaa, Muhammad bin Habban bin Ahmed bin Habban bin Muath bin Mabad, Cultural Books Edition – Beirut, 3rd Edition - 1417 AH.

V. Dictionary and Language Books:

27-Lisan Al-Arab: Muhammad bin Makram bin Ali, Abu Al-Fadl, Jamal Ad-Din bin Manzour Al-Ansari Al-Ruwaifi Al-Afriqi, 711AH, Publisher: Dar Sader – Beirut, 3/1414 AH

29-Al-Mogam Al-FalsafyAl-Arabi wa Al-Ferensea wa Al-Engleza wa Al-Taliya, written Dr. Jamil Saliba, member of the Arabic Language Academy in Damascus.

30-Al-Mogam Al-Mofahres Lalfaz Al-Quraan, Muhammad Fouad Abdel Baqi

V. Research and electronic links:

32-Al-Akhaz Blasbab fi Al-Quran Al-Karem, Ali As-Salabi, Islam Online, 2023, available at the following link: https://tinyurl.com/4yxme927

33-Al-Qoudra Al-Elahiyyah wa Al-Asbab fi Al-Quran Al-Karim Surat Maryam Namouzajan, Rehab Rifaat Fawzi - Journal of Islamic Studies and Academic Research.

الفهرس